

كتاب الهلال
أبو بكر
حوارى محمد
الدكتور نظمى لوقا

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٤٢ محرم ١٣٩١ — مارس ١٩٧١

No. 242 — Mars 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) — والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

أبو بكر
حواري محمد

بقلم
الدكتور نظمي لوقا

دار الهلال

« لان كل شجرة من ثمرها تعرف »
السيد المسيح
انجيل لوقا ٦ : ٤٤

« لان من الثمر تعرف الشجرة »
السيد المسيح
انجيل متى ١٢ : ٣٣

تنبيه

مؤلف هذا الكتاب مسيحي المولد والمعتقد ..

وما كنت بحاجة الى هذا التنبيه ـ الذى يغنى عنه اسمي ـ لولا أن نفرا من النـــاس ذهب ظنهم الى أن انصاف عقيدة من العقـــائد ـ أو انصـــاف أقطابها ـ لايمكن أن يصدر الا عن شخص يدين بالعقيـــدة التى يدفع عنها الافتراء ، وبالتـــالى لا يدافع بالضرورة عن الاسلام ورجاله أو ينصفه وينصفهم الا مسلم

وهو ظن باطل !

فليست كتبي هذه كتبا دينية فى جوهرها ومنهجها وغايتها الاصيلة ، وان عالجت أمورا متصلة بالدين . فالغرض الاول منها الحث على نزاهة العقل والضمير بصفة عامة ، والنظر فى ســـائر الامور نظرا موضوعيا مبرءا عن التحيـــز والتـــحامل . بحيث يكون التفكير الانساني أشبه بما يدور فى معمل التحليل الكيماوى : لا تتأثر نتيجة تحليل الدم الا بالعناصر التى يتكون منها هذا الدم فعلا . ولا دخل فى هـــذه النتيجة لان تكون قطرات الدم لذى قربى أو لأبعد البعداء .

وهـــذه النزاهة الموضوعية أسمى منهج عقلى متـــاح للبشر . وهى أشـــق ما يكون حين يتصـــل الموضوع بالعواطف الشخصية ، ولا سيما المعتقدات ، لأن التجرد

من هذه المؤثرات الذاتية جد عسير .

لهذا السبب تعمدت البحث فى الاسلاميات ، جاعلا من هذا الموضوع نمطا للمنهج العام الذى أدعو اليه . وليكون حجة ومثلا على الموضوعية المترفعة عن التحيز.

واذا كان المنهج الموضوعى يسمح للدارس بغير اعتراض أن يكتب عن الكواكب البعيدة من غير أن يكون من سكانها ، وعن المعادن من غير أن يكون ضرباً من الحديد أو النحاس ، وعن السيارات من غير أن يكون سيارة . فأى عجب أن يكتب بهذا المنهج الموضوعى عن الاسلام ورجاله من ليس فى عداد المسلمين ؟

الا ان الانصاف النزيه أثمن فضائل الانسان . وهو أجدر أن تتصف به نظرتنا الى الامور كافة ، بما فى ذلك الاديان التى ندين بها أو يدين بها سوانا ...

وفى مرجوى أن يقرأ القارىء صفحاتى بمثل الروح التى كتبت بها .

وسلام على الصادقين ...

دكتور نظمى لوقا

إهداء

الى السائرين فى الظلمة ...
والى من يلوح لهم ـ من أنفسهم ـ فجر جديد ...
وأيضا الى :
أحمد صلاح الدين عفيفى ..
الاخ الصادق الاخاء ، على اختلاف ديانتينا ...
« ورب أخ لم تلده أمك »

توطئة

التعريف بما هو معروف تحصيل حاصل ، أدخل فى باب الهذر الفـــارغ منه فى أى باب من أبواب المعرفة وفنون الفكر والادب .

وأبو بكر بن أبى قحافة ، الخليفة الاسلامى الاول ، والصحابى الصديق ، علم فى راسه نار ، يعرف الناس مكانته وفعاله معرفتهم الشمس فى رائعة النهار. فأى حاجة بكاتب مثلى يأتى بأخرة من الدهر يكتب عنه هذه الصفحات القصار ؟

ســؤال تحيلنا الاجابة عنه الى مناقشة الغرض من كل سيرة ، والغاية من كل دراســـة للشخصيـــات المشهورة .

فكل ذى شهرة انما يعرف الناس له « ماذا » صنع ، ولـكن ليس القصد من كل كتابة عن الاعلام أن نعرف « ماذا » صنعوا ... فقد تكون الـكتابة عنهم لنعرف «كيف» صنعوا هذا الذى صنعوه بالذات و«لماذا» ... ولا يراد بذلك فى جميـــع الاحوال معرفة كنه الافعال وأسرارها وأساليبها ، بل يراد شىء وراء هذا كله وأبعد منه منالا : يراد الايغال فى كنه الشخصيـــة ذاتها ، والتســـلل الى مكامنها . فنعرف « من » يكون فلان هذا ، ولا يكون قصارانا أن نعرف « ماذا » صنع فلان.

ونعيد هنا ما قلناه فى غير هذا الكتاب :

« ان الاحداث قد تكون جليلة الخطر فى أطوار الامم والدول والحضارات . وهى بهذا جديرة بالدراسة والبحث والتمحيص توسلا الى التعلم والاعتبار. ولكن دراسة اطوار النفس الانسانية فى ضوء الاحداث الكبرى أمر لا يقل عن دراسة الاحداث فى ذاتها اهمية وخطرا . بل تربو عليها فى ذلك أيما ارباء .

« ولا تكتسب الاحداث وزنها الحقيقى الا لأنها موصولة بحياة الناس ومصائرهم. فالانسان — الانسان الفرد والانسان المجتمع والانسان النوع — مقياس كل جليل من الامور والحوادث ، وهو غايتها القصوى فى الوقت نفسه .

« ومن اجل الانسان — وفى ضوء فهم تكوينه واسرار نفسه وسلوكه — يجب أن يكون اهتمام الدارسين الاكبر باحداث التاريخ »

وفى هذه الحدود نفسها استوجب أبو بكر أن نكتب عنه ، كتابة تقوم على المصاحبة اليقظة ، والتامل النافع فى جميع الاحوال ، ودراسة السلوك والاخلاق التى تطلعنا على المنابع الخفية لتلك المواقف الخطيرة فى حياة الامة العربية فى مرحلة من ادق مراحلها .

فهى اذن صحبة نفس فى محياها المعروف لنا معالمه وسماته وآثاره ، واستكناه خبيئتها كى تتكشف لنا مرحلة مرحلة مع أطوار العمر وتباين المواقف وطوارق الاحداث .

هى محاولة فهم اذن ، تتعقب الظاهر الى أصوله الباطنة ، كما يتعقب الفاحص الثمرة والفروع فى النبات الى جذوره الغائرة .

وهو شوط يصطحب فيه الكاتب والقارىء معا فى

ذلك الجهد الصادق للصـــعود الى سماء الحقيقة من صعيد المحسوس المألوف ، صعود من يتلمس الطريق ، ويتثبت ما استطاع لموطىء قدمه ، ويستعين العقل كله على السداد .

وكأين ما يصل اليه هذا الجهد ، فهو — وان قل — ثمرة سعي ، وحصيلة برهان ، ووليد تبصر وامعان .

وذلك ما عقدنا العزم عليه ، والله المستعان !

رنجل مرنے تیم

يعرف النــاس أبا بكر بن أبى قحافة بلقب الصديق الذى وصفه به محمد . وهم يعرفونه لســبقه الى الاسلام ، وصحبته الطويلة الصادقة للنبى ، وهجرته معه اذ هو « ثانى اثنين » فى الغار ، ثم هو الخليفة الاول منذ قبض النبى ، وصاحب المواقف المشهورة فى محنة الردة حتى قضى عليها ، وواضع دعائم ما صــار فيما بعد امبراطورية عربيــة متراميــة الاطراف تكاد تستوعب الجانب الاكبر من المعمورة .

ولــكن أبا بكر المسلم الصديق انما هو ابن أبى بكر الجاهلى ، الذى لم تبدأ دعوة الاسلام الا وهو يقــارب الاربعين ، أو هو ابن سبع وثلاثين سنة أو تزيد قليلا على أرجح الاقوال . وهى سن يكتمل فيها الطبع وتتم السجية .

فمن أبو بكر فى الجاهلية ؟

أبرز ما نعرفه عنه أنه رجل من قريش ، ومن بطن من بطونها الاثنى عشر . فهو من بنى تيم بن مرة .

فمن هم بنو تيم بن مرة فى قريش التى تنحدر من فهر ، والتى استقرت فيها الاوضاع على يد حفيد فهر قصى بن كلاب فى أوائل القرن الخامس للميلاد أو قبيل ذلك ، حين انتزع قصى بن كلاب السلطة فى مكة من بنى

خزاعة وأسكن فيها قريشا وقسم فيهم أحياءها ، لكل حى منهم قسم يبنون فيه بيوتهم . فنقلهم من البداوة الى الحضارة نقلة حاسمة ، وأقام بذلك «دولة قريش» فى حاضرة الحجاز مكة عاصمة الاوثان ؟

كانت قريش قد تمايزت اثنى عشر بطنا هى :

١ ــ بنو عبد مناف
٢ ــ بنو عبد الدار
٣ ــ بنو مخزوم
٤ ــ بنو أسد بن عبد العزى
٥ ــ بنو زهرة بن كلاب
٦ ــ بنو سهم بن عمرو
٧ ــ بنو تيم بن مرة
٨ ــ بنو جمح بن عمرو
٩ ــ بنو عدى بن كعب
١٠ ــ بنو عامر بن لؤى
١١ ــ بنو محارب بن فهر
١٢ ــ بنو الحارث بن فهر

فاذا نظرنا الى النسب ، وجدنا أن تيم بن مرة ، جد بنى تيم ، هو أخ لـكلاب والد قصى بن كلاب مؤسس قريش الحديثة ومقيم دولتها فى مكة .

فبنو تيم اذن فى النسب الصميم من قريش لا محالة ، لانهم أولاد عم بنى قصى الذين انفردوا بالعز والسلطان والثراء ، وهم ثلاث أسر : عبد مناف . وعبد العزى (ومن سلالته بنو أسد) وعبد الدار . وبنو تيم أولاد عم بنى مخزوم بن يقظة أيضا ، لأن يقظة هذا أخو تيم وأخو كلاب والد قصى .

وليس يعنينـــا الآن كيف تقلبت الاحوال وتنازعت هذه البطون السلطان والجاه فى القرن الخامس للميلاد ،

وانما الذى يعنينا فحسب أن أولاد قصي (ابن أخي تيم) تنازعوا بعد أبيهم ما اجتمع فى يده من السقاية والرفادة والحجابة والندوة واللواء والقيادة فى مكة حيث البيت الحرام ، أى الكعبة .

والحجابة هي سدانة البيت أى تولى مفاتيحه .

والسقاية اسقاء الحجيج الماء العذب الذى كان عزيزا بمكة ، وأسقاؤهم كذلك نبيذ التمر .

والرفادة اطعام الحاج جميعا . وكانت الرفادة قسطا تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه الي قصي يصنع منه فى موسم الحج طعاما ينال منه من الحجاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد .

واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر اذا توجهوا الى عدو

والقيادة امارة الجيش اذا خرجوا الى حرب .

وانتهى التنازع الذى أوشك أن يفضى الى القتال فتقاسموا تلك المناصب السنية ، فكان لبنى عبد مناف السقاية والرفادة (أى أمر الطعام والشراب). وبقيت لبني عبد الدار (أخى عبد مناف) الحجابة والندوة واللواء .

وتفرقت مناصب بعد ذلك فى بعض بطون قريش الاخرى ، فكانت قيادة الحرب لبنى مخزوم (آل خالد ابن الوليد من بعد) وكانت « الحكومة » فى بنى سهم (آل عمرو بن العاص من بعد) وهى التحكيم فى المنازعات والمجالس العرفية تحكيما غير ملزم على الدوام ، وانما يتوقف الامر على رضا الطرفين واقتناعهم برأى الحكم . وكانت الديات والمغارم فى بنى تيم بن مرة (آل أبى بكر من بعد) وهى أشبه بعملية الضمان الذى يتوقف قبوله على اقتناع الناس بالضامن وصدقه ووفائه بالضمان .

وأشهر أبناء عبد مناف «هاشم» الذى ورث مناصب أبيه ، و « عبد شمس » الذى برع فى التجارة وعقد الاتفاقيات التجارية مع نجاشى الحبشة وتكاثرت أمواله وأموال بنيه . وعبد شمس هذا والد أمية وجد أبى سفيان

ونخلص مما تقدم الى أن بنى هاشم (قوم النبى من بعد) كانت لهم صفة الشرف والمكانة الدينية لاتصالهم برعاية الحجاج واكرامهم . وان بنى عبد شمس كان لهم الثراء والتفرغ للتجارة ، وان بنى عبد الدار كانت لهم مفاتيح الكعبة والندوة واللواء . وهى شارات المكانة السياسية والنفوذ والسلطان. وان بنى مخزوم كانوا قادة الحرب عند نشوب قتال. وتلك هى المناصب العليا جميعا فى حاضرة الحجاز بالجاهلية .

أما أمر الديات والمغارم الذى كان موكولا الى بنى تيم ابن مرة فما أظنه كان ذا خطر كبير ، لأنه لا يتعدى « ضمان » وفاء المحكوم عليه بالدية أو الغرامة . وقد تقبل قريش الضمان الذى يقدمه التيمى أو لا تقبله . ويقال ـ من بعد ـ أن ابا بكر بن أبى قحافة كان ضمانه مرضيا فى الديات دائما لما تعرفه له قريش من الذمة والامانة والوفاء بالوعد .

ويقول معظم المؤلفين انه لا شىء عن بنى تيم بن مرة معروف لنا غير هـذا . ويقول الدكتور محمد حسين هيكل فى هذا الصدد :

« وقد رويت فى الاشادة بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب روايات تقصها كتب المتأخرين ، على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبنى تيم من الصفات لايختلف عما ينسب لغيرها من القبائل ، ولا يميزها بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيما ينسب اليها :

فهذه الروايات تنسب الى تيم من الصفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار وما اليها ما تشترك القبائل العربية التي تعيش تحت سماء شبه الجزيرة فى التمدح به والانتساب اليه . لهذا لم يقف مؤرخو أبى بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ... »

وهذا شأن من يعتمد على المنهج النقلى ويتقيد به ، ولكن المنهج العقلى حرى أن يؤدى بنا الى نتائج كثيرة نقوم بتحقيقها ومضاهاتها بالوقائع التى ثبتت لنا من مواقف أبى بكر سليل تيم بن مرة — وسلوكه ومناقبه.

فماذا كانت احوال بنى تيم بين بطون قريش ؟ وماذا كانت هذه الاحوال خليقة أن تفرض بأوضاعها على بنى تيم من مناهج السلوك وطرائق التصرفات ، بما لها من الزام مادى ونفسى ؟

ما من شك فى ان كل جماعة انما هى فى سلوكها ومجموع صفاتها ومناقبها ومثالبها محدودة باطار من ظروفها المادية وبالآثار النفسية الناجمة عن تلك الظروف . ومحدودة بما يترتب على وضعها من طموح، وبوسائلها لتحقيق ذلك الطموح ، وهى وسائل لا سبيل لها الى تجاوزها

ولذا نسأل مرة اخرى : ماذا كان وضع بنى تيم بن مرة بين سائر بطون قريش ، وهم بنو عمومتهم ، وفيهم البطون القوية والبطون الثرية والبطون كثيرة النفر والبطون التى لا حول لها ولا طول ، والبطون التى هى من الثراء أو النفر أو القوة بين بين ؟

ان تيما كان عم قصى مؤسس الدولة الذى استأثر بنوه بكل السلطان والثراء والمكانة الدينية المتصلة بالكعبة والحجاج ... وشأن بطون القبيلة يومئذ التمايز والتناظر والتنافس الذى يفضى الى التنابذ فى

بعض الاحيان . وكل بطن يعتد ويشمخ على سائر البطون . وكل بما لديهم فرحون .

وبما كان بنو تيم — على نسبهم الصميم فى قريش — ذوى عدد أو عدة أو ثراء أو نفوذ أو مكانة حربية أو دينية . فهم يعيشون اذن مكافحين فى تجارة محدودة ليحفظوا على أنفسهم عيشا كريما يتطاول الى اليسر ، وربما الى الثراء ، ويتحاشى الفاقة والحاجة بجهد وسعى موصول .

فهم بذلك دون المكانة المعروفة لعلية اهل الجبروت فى السياسة والمال والحرب ، ولكنهم كذلك فوق مكانة الطبقة الدنيا ، يعتدون بأصل عريق ، وليس لهم مع هذا من الامر شيء . وخلو الاخبار من ذكر لبنى تيم ابن مرة فى الجاهلية دليل قاطع على انه لم يكن لهم شأن ذو بال ..

فماذا يفرض هذا الوضع الاجتماعى والاقتصادى والتاريخى على من يريد أن يصون احترامه ومكانته لئلا يهبط الى درك العامة وأصاغر الناس ، ويصبو الى أن يطاول برأسه أكفاءه فى النسب وان لم يكن من أكفائهم فى السلطان ، ويحاذر أن يدوسه أولئك الجبابرة من بنى عمومته الاقوياء الاثرياء ذوى العدد والعدة والمنعة ، الذين يملى لهم الجاه والبأس — أو لكثيرين منهم على كل حال — فى الانحلال والطغيان والافتئات بغير رادع ؟

ليس من العسير أن نستنتج ما يكون لمن هذا شأنه من النهج فى الحياة :

انه من حيث مصدر معاشه لا اعتماد له الا على التجارة . وان للتجارة لمن فى مثل حاله حدودها ومقتضياتها من السلوك ان أراد لها صاحبها الرواج فى ظروف الجزيرة العربية يومئذ بصفة خاصة :

قبائل وبطون منتشرة لابد فى التعامل معها من ضمان للوعود وعقود الصفقات الشفوية . ولا بد من الامان والمسالمة ... وليس العهد عهـد حكومة مركزية ولا بطاقات شخصية. ولا مسئولية فردية . فالمسئولية جماعية تلتزم بها العشيرة فى القبيلة الواحدة ، وتلتزم بها القبيلة تجاه غيرها من القبائل. فأهم ما يلزم صاحب التجارة ــ ولا سيما من ليس له بأس بارز ومنعة من قومه الادنين منيعة ــ أن يكون عارفا بالانساب ، التى تقوم يومئذ مقام البطاقة الشخصية فى زماننا .

ولابد له أيضا من أن يكون حسن المدخل عند الناس، حصيفا فطنا ، كثير الاناة ، يتجمل بالصبر والبشاشة والدماثة التى تتألف القلوب ، ولا تستثير العدوان ، وتستل السخائم .

ولكن لابد وراء هذه المهاد اللينة من حزم يعرف صاحبه أين تنتهى الملاينة والمسايرة ، وأين يجب ان يقف فلا يتزحزح والا خسرت تجارته أو استخف به من يتعامل معهم فيذهب ماله ضياعا .

وعند خليقة الحزم هذه تلتقى خلائق الحرص ، واستدبار العواقب ، والبصر بدخائل الناس ، وحسن الخروج من المواقف قبل أن تتأزم ، وحفظ السمت حتى لا تسقط الهيبة بالتبسط والدعابة ، والبعد عن مباذل الفجور والخمر والميسر ، والا تعرضت التجارة ــ وهى محدودة ــ لافلاس فلا يسهل تعويضها أو تجديدها برأس مال مستحدث . وتلك كلها مما يحفظ المروءة ويستلزم الوقار مع البشاشة . وتستلزم كذلك التفكير العملى الذى لا يجد ضيرا فى التساهل استبقاء للمودة ، لأن من ليس عميلا اليوم لا يأس أن يكون عميلا فى يوم من مقبل الايام . فاحدى عينيه على اجتناب الخسارة ،

وعينه الاخرى على ربح مأمول ، ان لم يكن عاجلا فهو آجل .

وهذا أدخل فى باب الدهاء ، ولكنه مكر الحصانة الحسن ، لا مكر السوء والغدر والانتقاض . مكر الكائن الضعيف البدن تمده به الطبيعة ليحمى وجوده من ذوى الفوائل المتجبرين .

وكل هذا يحتاج الى ضبط شديد للنفس ، فلا تسرع الى الغضب والشحناء ما لم تكن له عن ذلك مندوحة لحماية الكرامة أو حماية المال . لأن التهور غير مأمون العواقب ، فلا عدد فى العشيرة يرهب ، ولا سلطان لها يخيف ، ولا يكون بعد التهور فى هذه الحالة الا تحمل الثأر أو الاهانة بغير قدرة على الردع . وليس أضيع للعربى من هذا الهوان !

والمال هنا تابع للكرامة وركن لها ، فلو ذهبت الكرامة لما قامت له بين تلك العشائر قائمة ، ولأدت الاستهانة به الى القضاء على كل مكانة له وكل متجر .

فاذا أدخلنا فى اعتبارنا النسب الكريم الذى لا يقل عراقة عن نسب أقوى الاقوياء وأثرى الاثرياء وأوجه الوجهاء ، وجدنا الاعتداد بالنفس و « الجساسية » من جهة الكرامة الشخصية تتضخم وتتجسم ، فتفرض على صاحبها مزيدا من مقتضيات « حفظ مركزه » وهو الذى يحز فى نفسه الا يكون له سند يكافىء هذا النسب ويعادله من ثراء طائل أو سلطان أو كثرة عشيرة .

وانما هى « الحسنى » اذن سند هذا المقام الذى يعوزه ما عداها من السند . وهى السبيل الى السيادة بين الناس باختيارهم لما لصاحبها من حسن السمعة ومكارم الاخلاق وحصافة الرأى والترفع عن الصغائر .

وخليق بالحصيف من مثل بنى تيم بن مرة اذن أن

يكون شـــــديد التمسك بأسباب العـدل ، حريصا على سيادة « الاصول المرعية » فى المعاملات بين النـاس ، متمسكا فى تعامله معهم بصـدق الوعد والوفاء بما فى الذمة ماديا ومعنويا ، فهو يعلم علم اليقين ان هدم هذا الاسـاس فى التعامل يهدم عمـاده الاكبر فى صيـانة حقوقه وسلامة ماله ونفسه ، وهو الذى لا منعة تحمى حياته وأمواله من المعتدين أو الملتوين . فلا عجب يتسم كل شيء بصدق الوعد ووفاء الذمة وتعضيد العدل .

وما من أحد يستطيع الحياة بين الاقوياء بغير ايمـان بسند من القوة يحميه حتما من افتئات هؤلاء الاقوياء . فيغلب أن يرتبط العدل والتمسك بالصـــدق والوفاء والبر بالعهود بقوة غير مادية محجـوبة فى عالم الغيب تردع الجبارين وتحيط حدود العدل بحمايتها ، لانها واضعة هذه الحدود التى لولاها لما حال بين العتـاة والتهام أموال الضـعفى وأنفسهم وكراماتهم حائل . فليس يعقل فى احساسهم ان تكون ماديات هذا العالم الظاهرة كل شيء ، وانما معها وفوقها مصـادر للقوة فوق كل قوى ، وهى القادرة على أن تقهر كل جبار .

وبغير هــذا الاحساس الكامن لا يجدون العزيمة للمضى فى حياتهم معتدين بأنفسهم غير متخاذلين لقلتهم بين ذوى العدد والعدة ، ولتجردهم من السـلطان بين ذوى البـأس ، ولضآلة عتادهم من المـال بين اقيـال التجارة وجبابرة الحرب .

ولا يندر فى قوم هذا شأنهم ، حيـاتهم كفاح ينطوى على تحفز تغطيه الدماثة والسـماحة ، وعلى يقظـة للجبابرة وذوى الصلف فى اعتداد رصين وقـور ، وعلى ضبط النفس الذى يكـظم الغيظ ويردع عن الصـغار والمجون والتبذير ، وعلى حساب للعواقب الآجلة غير

المرئية يطغى على الحاح الحاضر الآجل ، نقول لا غرابة أن يكون الكثيرون من هؤلاء ذوى تكوين عصبى ، ولا سيما من كان منهم صغير الهامة ، يحز من اعتداده نحول شديد أو قصر بين يجعله عرضة لاقتحام العيون إياه واستهانتها بقدره وقدرته •

هذه هى الشمائل المنتظرة من أى رجل حصيف من بطن فى قريش مثل بنى تيم بن مرة .

وهى سمات محددة ، بعيدة بعدا شاسعا عما ذهب اليه أصحاب المنهج النقلى ، وهى أيضا خليقة أن تكون اطارا معقولا ، وبيئة ذات مناخ مادى ونفسى وخلقى واضح المعالم ، ينبت فيها رجل بعينه ، هو أبو بكر بن أبى قحافة ، متأثرا بها آخذا منها ...

ولئن تحول عن الجاهلية الى الاسلام مبادرا ، فهذا التحول لا محالة قد تم بكل ما لتلك البيئة من اثر فى تكوينه الفردى ، ولا بد أن هذا الاثر قد أعده لتلك المبادرة الفذة .

فأبو بكر الصديق ابن ابى بكر الجاهلى ـ كما قلنا ـ وأبو بكر الجاهلى رجل من بنى تيم بن مرة .

والآن ••• فلنر أين كان أبو بكر من هذه الخلال المفترضة ؟ وما صفته فيما تركه لنا الاخباريون والمؤرخون ؟

سمات أبي بكر

يقول الطبرى باسناده عن عائشة بنت أبى بكر أنها نظرت الى رجل من العرب مر بها وهى فى هودجهـــا فقالت :

ــ ما رايت رجلا أشبه بأبى بكر من هذا !

فقلنا لها :

ــ صفى أبا بكر ..

فقالت عائشة :

ــ رجـــل ابيض نحيف خفيف العارضـــين أجنأ (أحدب) ، لا يستمسك ازاره ، يسترخى على حقويه (خصره) ، معروق الوجه (قليل اللحم فيه) ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، عارى الاجاشـــع (أصـــول الاصابع التى تتصل بظاهر الـكف)

وأما على بن محمد فروى باسناده ان أبا بكر كان « أبيض يخالطه صـــفرة ، حســـن القامة ، نحيفا ، أجنأ ، رقيقا عتيقا (مليـــحا) أقنى الانف ، معروق الوجه ، غائر العينين ، حمش الســـاقين (دقيقهما) ممحوص الفخذين (يتصفان بالشدة والادماج) يخضب بالحناء ... »

وهـــذا التكوين الجسدى الدقيق ظاهر فيه المزاج العصبى ، وفى مظهره الذى تقتحمه العين ما يدخل فى

حساب « العوامل المشددة » عند حساب صفاته الخلقية وسجاياه واسلوب تعامله مع الناس .

كيان صغير ، لو انطوى على طبع فاتر أو مزاج بارد لكان مخلوقا صغير الظاهر والباطن ، كالارنب ، تقتحمه العين ، ولا يقف عنده ذو بصر ولا بصيرة ...

ولكن أبا بكر بن أبي قحافة كان في كل ما عرف عنه ذا طبع جياش ومزاج حار ، ظاهره ساكن وباطنه محتدم الاوار . وظروف قبيلته ومهنته تحمله حملا على أن يلتزم حدودا مأمونة في سلوكه وتعامله مع الناس ، ومن هنا جاءت أهمية ضبط النفس الشديد وأخذها بالحزم الحازم والنهى الصارم .

ولنا بعد قليل عود الى هذه السمة الوجدانية ، بعد الاحاطة السريعة بسائر ما انحدر الينا من أخبار سماته وخلائقه التي عرف بها في جاهليته .

وأول هذه الصفات انه كان نسابة لا يبارى ، حتى لقد وصف بأنه « أنسب قريش » أو أعرف رجالات قريش بأنساب العرب ومفاخرهم ومثالبهم ومغامزهم .

فابن هشام يورد ذلك في معرض لاشك في دلالته على أن أبا بكر كان المرجع الاكبر والحجة الاوثق في علم الانساب :

« ان عمر بن الخطاب حين أتى بسيف النعمان بن المنذر دعا جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل — وكان جبير من أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة ، وكان يقول :

— إنما أخذت النسب عن أبي بكر الصديق !

وكان أبو بكر الصديق أنسب العرب ، فسأله عمر :

— من كان يا جبير النعمان بن المنذر .. ؟ »

وهذا اشبه في الدلالة بمن يقول أخذت المنطق عن ارسطو ، أو أخذت النحو عن سيبويه ...

ولكن النسب علمه درجات متفاوتة • ففى النسابين من كل محصوله أن فلانا من ولد فلان من فلانة . أما علم أبى بكر بالانساب فكان واعيا جامعا ، محيطا بالمثالب والمحامد والمغامز التى يكون بها النسب مفخرة أو وصمة تخزى صاحبها . بل كان بخفايا هذه المثالب عليما ، يدرى من أسرارها ما يحرص أصحابها على خفائه حتى لا يفتضحوا بها فتكون سبة الدهر .

ونسوق على ذلك ما أورده القيروانى فى كتابه « زهر الآداب » من أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان من أشعر قريش ـ هجا النبى محمدا بشعر مقذع :

« ... وما انتهى شعر أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الى النبى صلى الله عليه وسلم شق عليه فدعا عبد الله بن رواحة فاستنشده فأنشده ، فقال النبى :

ـ أنت شاعر كريم ...

ثم دعا كعب بن مالك فاستنشده فأنشده ، فقال النبى :

ـ أنت تحسن صفة الحرب !

ثم دعا بحسان بن ثابت فقال له :

ـ أجب عنى !

فأخرج حسان لسانه فضرب به أرنبة أنفه (متباهيا بطوله) ... ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمس أبا سفيان ، فقال النبى :

ـ وكيف ، وبينى وبينه القرابة التى قد علمت ؟ !

فقال حسان :

ـ أسلك منه كما تسل الشعرة من العجين !

فقال النبى :

ـ اذهب الى أبي بكر !

وكان أبو بكر أعلم الناس بأنساب قريش وسائر العرب ، وعنه أخذ جبير بن مطعم علم النسب . فمضى حسان اليه فذكر له أبو بكر معايب أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال حسان بن ثابت شعرا فضح به أبا سفيان فى أمه سمية وأم أبيه سمراء . فلما بلغه هذا الشعر قال :

ـ هذا كلام لم يغب عنه ابن أبى قحافة ! .. »

وهذا العليم بمثالب السادات ومغامزهم ما أحراه اذن أن يتوقى من الفعال ما تلحقه منه سبة يحفظها له نسابة من طرازه !

ولقد كانت سيرته فى الجاهلية مصداق هذه الاستقامة الملحوظة . فلئن كانت عشيرته « بنو تيم » لها التحكيم أو الضمانات فى الديات والمغارم ، فما كان كل تيمى مقبول الضمان فى جميع الاحوال . الا أبا بكر ابن أبى قحافة ، فقد قبلت قريش ضماناته كلها فى الجاهلية بالدية أو التعويض (المغارم) ، ولا يمكن أن يكون هذا قد أتاه جزافا عند قوم ما كان أقربهم الى اللدد واللجاجة فى الخصام ، وتمحل الاسباب للتلاحي عتوا وتجبرا . فلا بد للضامن المقبول أن يكون ذا دراية مفرطة وحساسية مرهفة لتفاوت الاقدار والعصبيات ، مع كياسة فى سوق الاسباب والتقديرات التى ترضى فريقين متغاضبين .

وفى هذه السمة جماع شمائل كثيرة من اللباقة وبعد النظر ودقة الموازين ، وكلها من أرهف السجايا التى يندر اجتماعها لشخصية واحدة فى أى مجتمع من المجتمعات ، ولا سيما اذا أضفنا اليها الأمانة ورعاية الحق .

فغير غريب اذن أن نجد أبا بكر فى الجاهلية مشهورا بصدق القول والوفاء بالعهد ، يقيد به نفسه حتى عندما تكون له مندوحة من التقيد به لو أنه رام ما يبرر به أمام نفسه وأمام الناس ذلك التحلل .

وهل أحب أبو بكر أحدا وآثره على نفسه وأهله مثلما أحب النبى محمدا ؟ لا ولا ريب !

ومع ذلك لم يدفعه هذا الحب الجم الى التزحزح قيد أنملة واحدة عن سجية الوفاء بالعهد ، والقيام عند الوعد ...

هذا النبى محمد يخطب اليه ابنته عائشة . أرسل فى ذلك خولة بنت حكيم ، فخاطبت فى ذلك أم رومان والدة عائشة ، فكان طبيعيا أن يستطير السرور أبا بكر اذ يرى ابنته تملأ الفراغ الذى تركته خديجة بنت خويلد شاغرا أمدا طويلا ، وأن يرى فى ذلك آصرة تزيد ارتباطه بنبيه فيها من شرف المصاهرة ما يضاعف شرف المصاحبة . ولكن رجلا من رجالات المشركين كان قد خطبها قبل ذلك بسنين لابنه المشرك . فما أحسنها فرصة ليسل ثيابه من ثياب هذا المشرك ! وفى شركه عذر كاف لمثل أبى بكر بعد الذى لقيه ونبيه من عنت فى الاشخاص والاموال كي يستبدل الذى هو خير ما يمكن بما هو شر ومدعاة حرج واعنات .

ولكن معاذ مروءة أبى بكر !

ان أبا بكر خير من يشعر بهذا كله . وبأن الله بدله من شر خيرا عميما . ومن حرج شرفا وفرجا . ومع هذا قال لزوجه أم رومان :

— ان المطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه ...

وكأنما استشعر تمام المقابلة بين الضدين ، وأنه لا يليق بمثله أن يذكر هذا الخاطب المشرك أمام خاطب

هو نبيه الذى يفتديه بالنفس والنفيس ، فأردف ذلك بالمبدأ الذى اذا ذكر لم تعد المسألة مسألة مقابلة ومقارنة بين ما هو أدنى وما هو خير :

ـ ... والله ما أخلف ابو بكر وعداً قط !

وتوجه الى مطعم بن عدى يسأله الم يزل على رغبته فى تزوج ابنه من عائشة ؟ وأبدت امرأة عدى تخوفها وقلقها أن يؤثر ابو بكر على ابنها ـ وكان لم يزل حديث السن :

ـ ... اتصبئه يا أبا بكر وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟

وايدها زوجها فى هذا التوجس ، فكان ذلك حسب ابى بكر كى يجد انهما أحلاه من وعـــده ، فانه ما كان مستطيعا أن يعد بعـــدم « تبشـــير » زوج ابنته بدينه الجديد ، وهو الذى يبشر به ويدعو اليه كل من وجد فرصة للتحدث اليه من عرض النـــاس وخاصتهم ، فكيف بصهره وختنه اذن ؟

أما وهو عاجز عن شرطهما فهو فى حل من وعده . أما بغير هذا الشرط الذى اشترطاه فما كان شيء ليغريه بالنكول عن الوعد ، ولو أصهر الى مشرك فى الوقت الذى يمد اليه يده ـ من ؟! ـ نبيه للمصاهرة !

وعند هذه السجية نحب أن نقف قليلا :

ما مصدرها ؟

ما مدلولها ومؤداها ؟

ألعل مصدرها الـكرامة ؟

تقترن الـكرامة بصدق الوعد أجل ، بل هى قرينة له على الدوام ، ولـكن الـكرامة قـــد لا تكون المنبع الحقيقى لهذه السجية الـكريمة وان هى صاحبتها ، فهى صنو وليست بأصل .

فمن يصدق وعده عن كرامة على نفسه فحسب ، خليق أن يكون فى سلوكه بعامة عنجهية وعجب !

وما كذلك كان أبو بكر !

فلا يبقى الا أن يكون صدق الوعد المقترن بالوقار والدماثة نابعا من سجية نسميها « حب الحق » بالمعنى العام ، الذى يدفع صاحبه الى حب رعاية حقوق الناس جميعا . يوجب ذلك على نفسه ويقدمه على كل مصلحة له وان عظمت ! وعلى هوى النفس وان طاول شم الجبال وأربى فى الوزن عنده على رواسيها !

وهل من هوى نفس أعلى عنده وأرجح من حبه لنبيه ؟

ومع هذا فالحق أعلى من كل ذلك وأغلى وأجدر !

وتلك أولى السمات التى نجدها بكل صفائها فى أبى بكر سليل بنى تيم ، وان كانت تيم بظروفها وقلة ناصرها وسعيها بالتجارة وتوسطها بين ذوى الاقدار والاموال لا نعرف فى عامتها هذا التقديس النقى لمطلق معنى الحق ، ومطلق معنى الصدق ، وقصاراها أن تقوم فى تجارتها وحفظ كيانها على المصانعة ورعاية حدود الناس ، وان يرعى الناس حدودها ، وهى بحاجة الى هذه الرعاية وسط الجبابرة من بنى الاعمام ...

فكأن مناخ تيم فى هذه الخصلة تجمع فى أصفى نطفة منها ، كما يتجمع المناخ الذى يصنع الفحم فى باطن الارض على أصفى وأندر ما يجتمع عليه لتكون وسط طبقات الفحم ماسة نادرة الصفاء ...

وعلى مثل هذا النقاء كان أبو بكر فى خلقه هذا من تقديس الحق لذاته ، ومن الصدق لذاته ، ومن الوفاء بالوعد لذاته .

ونقول مرة أخرى انه تقديس مطلق الحق ، وليس

الكرامة فحسب مصدر هذا كله ، لانه لم يكن صاحب عنجهية وعجب ممن لا غاية يرمون اليها الا اثبات ضخامتهم وانفتهم ووزنهم الشخصى .

بل كانت الدماثة — وهى نقيض الكبر والعجب — صفته التى اشتهر بها أكثر من كل صفة بين معاصريه والمعجبين به من غير معاصريه على السواء .

لم يكن أبو بكر يدافع احدا الا بالتى هى أحسن ، اللهم الا أن يكون الامر متعلقا بما لمطلق معنى الحق من قداسة ، وأن يكون التطاول فى استخفاف لا بشخص أبى بكر بل بسلطان يمثله أبو بكر . وفيما عدا هذا فهو الى المسالمة وخفض الجانب .

ولقد يتحرش به الرجل من الاجلاف فلا يرى ذلك شيئا ، ولا يحسبه مدعاة لغضب .

قال له رجل ذات مرة :

— لأسبنك سبا يدخل معك قبرك !

فما زاد أبو بكر على أن قال :

— بل معك والله يدخل لا معى !

فكانت هذه الكلمة الهادئة عقابا أوجع ودرسا أنفع للكافة من الف غضبة مضرية « هتكت حجاب الشمس أو تمطر الدما » !

وقد يقال ان هذه الدماثة رويت عن أبى بكر فى الاسلام ...

ونقول نحن :

لا يكون الرجل فى الاسلام على سجية نفسية تناقض سجاياه الاصلية . انه قد يتغير بالكف عن هذا الامر أو ذاك بسبب التحريم ، أما أسلوب معاملة الناس مما ليس فيه تحريم فمرجعه الى طبيعة النفس ذاتها أو المزاج النفسى . فالرقيق يكون رقيقا ، والخشن يكون

خشنا . والبخيل بخيلا والكريم كريما ، والحساس للجمال حساسا للجمال وهلم جرا ...

وما نحسب نجاح أبي بكر في تجارته ، ثم في احترام رأيه في الديات والمغارم ، ثم في اقتناع الكثيرين من السادات بعد ذلك بالاسلام ، ما كان هذا كله ليتفق له لولا الكياسة والدماثة الاصيلتان فيه .

ولننظر الى رأى المشركين فيه حين أسلم ، وما أظنهم مهتمين بالتحيز لأبي بكر :

يروى ابن هشام ان الاضطهاد حين كثر على أبي بكر استأذن في الهجرة الى الحبشة ، فلقيه في بعض الطريق ابن الدغنة وهو يومئذ سيد الاحابيش فقال له :

ــ الى أين يا أبا بكر ؟

قال أبو بكر :

ــ أخرجني قومي وآذوني وضيقوا على !

قال ابن الدغنة :

ــ ولم ؟ انك لتزين العشيرة ، وتعين على النائبات ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم . ارجع فأنت في جواري ! .. ،

ذلكم كان رأى أهل الشرك في أبي بكر ! ؟

والفضل ما شهدت به الاعداء !

من الظاهر إلى الباطن

هذا الانسان النسابة الدمث المقبول الحكم والضمان، المتزن الرأى ، المعين على النوائب ، الخبير بالتجارة ، القصير المعروق الاحدب ، أى رجل كان تحت هـــذا الظاهر البادى للعيان ؟

ثمة اجماع على انه كان دمثا .

يقول ابن هشام :

ـ وكان أبو بكر رجلا مألفا (يألفه الانسان) لقومه . محببا سهلا ... وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته .

ولــكن أى شىء تحت هذه الدماثة ؟

لا يبدو ما تحت الظاهر من الكوامن الا حين يمتحن هذا الظاهر بما يحتك به احتكاكا قويا . فان كان تحته ما يخالفه انقدح كالشرر أو انفجر كالنوافير من تحت الصخر أو كالبراكين من تحت التلال التى كانت تبدو لمرأى العين مكســوة بالبســاتين والرياض الوادعــة اليانعة !

فهل كان فى حياة أبى بكر فى الجاهلية ما أتاح لدماثته وصبره هذا الامتحان الثاقب ؟

قليل من أخبـــار جاهلية أبى بكر ما أتانا فى هـــذا

السبيل . ولكنه القليل الذى ينبى عن كثير، وفى تأمله ما قد يحدثنا بأن دماثته لم تكن مثل سائر الدماثة انسياقا محضا وباطنا خاويا من كل ما يخالف الظاهر المألوف فيه وفيمن حوله من أترابه وأهل عشيرته الاقربين والابعدين ...

نشأ أبو بكر فى عاصمة الاوثان مكة .

ولكن أبا بكر لم يكن ممن انساقوا مع التيار ، فلم يعكف كما عكف أهل بيئته على الاوثان . وفيما وصل الينا من خبره انه لم يسجد لصنم قط . وتحدث عن ذلك فقال :

« لما ناهزت الحلم أخذ أبو قحافة بيدى فانطلق بى الى مخدع فيه الاصنام فقال لى : « هذه آلهتك الشم العوالى ! » وخلانى وذهب. فدنوت من الصنم وقلت :

ــ انى جائع فأطعمنى !

فلم يجبنى الصنم فقلت :

ــ انى عار فاكسنى !

فلم يجبنى . فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه ! »

وقد تصدق هذه الرواية بحروفها أو قد لا تصدق. ولكن مدلولها يبقى ناطقا بمطابقته لواقع الحال الذى وصل الينا عن أبى بكر بن أبى قحافة :

فالامر الذى لا موضع للشك فيه ان أبا بكر المسلم لم يكن خلقا طارئا لا عهد للعالم به قبل يوم أعتناقه الاسلام . بل هو امتداد على نحو متطور لأبى بكر الجاهلى ، بل انه ما كان ليسلم على النحو الذى أسلم به الا لأنه ذلك الشخص المعين بالذات الذى عرفه الناس فى الجاهلية . فمكونات شخصيته وهو جاهلى هى التى حددت أسلوبه فى مواجهة الاسلام .

ان التكوين النفسى المعين هو الذى يجعل صاحبه ذا

موقف معين ازاء كل موقف خطير فى حياته وحياة قومه ــ كما كان ظهور الدعوة الاسلامية بلا ريب ــ وما كان اختلاف الناس فى مكة يومئذ بين منكر أو معرض أو غير مكترث أو متردد أو ناقم الا لاختلاف تكوينهم النفسى. ويدخل فى هذا التكوين النفسىعنصر الظروف الاجتماعية والنفسية بطبيعة الحال .

فلو لم يكن أبو بكر ذا تكوين نفسى فريد فى جاهليته لما كان موقفه من الاسلام ذلك الموقف الذى تفرد به...

وحين تعوزنا معرفة كافية بجذور الشجرة لن نضل اذا التمسنا معرفة نوعها وصفاتها من الثمرة التى تتمخض عنها .

« لأن من الثمر تعرف الشجرة » .

كلمة السيد المسيح ــ وما أصدقها ! ــ فى موعظته المشهورة .

وقد وعى لنا التاريخ عن أبى بكر الجاهلى ما عرفنا منه سماته الظاهرة . ونحن خليقون أن نجد فى «ثمرة» حياته على عهد الاسلام ما يطلعنا على ما هو خاف تحت هذا الظاهر ، فتنفذ نظرتنا الى سماته الباطنة بعد سماته الظاهرة .

ونبدأ بعلاقته بالاصنام قبل الاسلام ، تلك العلاقة التى انحدرت الينا عنها هذه الرواية ، فنقول انها ــ صدقت بحروفها أو لم تصدق ــ مطابقة للسان الحال ان لم تطابق لسان المقال ...

وفى رواية ابن هشام أن النبى قالعن اسلام أبى بكر:

ــ ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد . الا ماكانمن أبى بكر بن أبى قحافة ، فماعكم (ما انتظر) حين ذكرته له وما تردد فيه !

وتلك أولى الثمرات التى أنبتتها شجرة سلخت من

عمرها فى زمن الجاهلية قبل ذلك نيفا وسبعا وثلاثين سنة !

وهى ثمرة ذات طعم فريد بين الثمار التى طاب جناها فى الاسلام .

فلماذا كان هذا بالذات موقف أبى بكر دون سواه ، ان لم يكن لسبب أصيل فى تكوينه أيام الجاهلية تفرد به أسلوب تفكيره ونظرته الى الوثنية ؟

لقد كان سلوكه فى هـــذا سلوك الغريق أنس طوق النجاة . فما « عكم » أن تشبث به تشبثه بعين الامل فى الحياة !

هذا شأن رجل انطوى على « غربة نفسية » شديدة فى عالم الاوثان . وأضمر لها ازدراء عميقا عايشه أمدا طويلا . ومحال أشد المحال أن يكون تصرفه هذا من وحى الساعة بغير مقدمات وتمهيدات سابقة .

ثم نعود الى صفاته المألوفة : كان سهلا محببا دمثا يألفه الناس ويودونه ويثقون به .

ولو كانت دماثته هـــذه دماثة انقياد ومحض تعلق بالناس وتحبب اليهم لـكان حريا أن يعرض عن دعوة ثورته عداء الناس وتقطع مابينهم وبينه من الفة وتواد .

ولكنها دماثة البـــاطن السـخى الثرى الذى تفيض منه المودة عن احساس عميق بالاخاء الانســـانى وعن سعة أفق وبعد عن الاثرة ...

انها دماثة الوجدان الحار والعاطفة الدافئة والحماسة للخير والرحمة .

فالدماثة هنا فرع وليست أصـــلا . ومظهر لطيف لباطن محتدم شديد الاكتراث لقيم تتجاوز الاشخاص ولا تراهم الا فى الضوء الباهر لهذه القيم .

وهذا هو التفسير الوحيد المقبول لدى العقل لاقدام

ابي بكر بغير تردد على تعريض كل علاقاته الدمثة للخطر، والمجازفة بالمودة والالفة التى عاش فى ظلالهما .

ايثارا لأى شيء ؟

ايثارا لما كان عنده على الدوام – وان خفى عن عيون الناس التى لا تتجاوز الظاهر – أرجح من الدماثة ومن الاشخاص . ايثارا للقيم التى أحسها وأحس ان الاوثان هيهات تمثلها . وانما هى تسد الطريق اليها وتشغل الناس بالاباطيل والترهات ..!

وعلى ظمأ شديد طويل وجد من يقرب اليه المـاء . فكيف يتردد فى ورود المنهل ؟

« من الثمر تعرف الشجرة » .

ومن أسلوب استجابته الفورية للاسـلام نعرف أى رجل كان ذلك الجاهلى الدمث . ونعرف أى حماسـة كانت تحتدم احتداما تحت دماثته التى لم يأنس منهـا عارفوه الا ظلا ظليلا وبردا وسلاما ...

تلهف لا يعرف التوقف .

تلهف لا يبالى ما يكون . وكأنه يدوس كل ما كان يبدو للناس أنه يحرص عليه : فها هو الرجل الدمث يودع الامن والسلامة والدعة ويستقبل الويل والثبـور بلا تردد !

انها اذن ليست دماثة الضعيف المستكين الذى يلوذ بالوداعة فزعا من الاهوال والصعاب .

كلا !

وانما هى دماثة مقصودة من رجل هو على غير الدماثة قادر ! وانما هو ايثار للموادعة والمودة من رجـل هو لغيرهما مستطيع !

دماثة ومودة هما فرع وليسا الاصل فى تكوينه . أما الاصل فحماسة لمطلق معنى الحق ومطلق معنى القيمة.

وشعور بالوحشة فى دنيا الاصنام الجاهلية حتى لاح له المرفأ الامين ، فارتمى عليه لا يبالى بعد ذلك ما يكون !

هذه الحرارة والحماسة ، انهما دلائل أخرى ومسارب شتى فى تكوين هذا الرجل القصير المعروق ، الذى تكاد تقتحمه العين لولا وقار فيه ؟

يروى المبـــرد فى كتابه الـكامل حادثة ذات دلالة خاصة ، يقول : « حدثنى العتبى فى اسناد ذكره قال : دعا طلحة بن عبيـــد الله (أحـد السابقين الثمانية الى الاسلام ومن أخص أصدقاء أبى بكر) أبا بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رحمهم الله . فأبطأ عليه الغلام بشىء أراده . فقال طلحة :

— يا غلام !

فقال الغلام :

— لبيك !

فقال طلحة :

— لا لبيك !

فكف أبو بكر عن الطعام وقال :

— ما يسرني أنى قلتها وان لى الدنيا وما فيها !

وقال عمر :

— ما يسرنى انى قلتها ولى نصف الدنيا !

وقال عثمان :

— ما يسرنى انى قلتها ولى به حمر النعم ! (اكرم انواع الابل)

وصمت عليها طلحة فلما خرجوا من عنده باع ضيعة بخمسة عشر الف درهم فتصدق بثمنها كفارة » .

ولم يكن ما حدث بين طلحة وخادمه بالامر الغريب بمقاييسنا العصرية ، بل لعله أخف بكثير من قول بعضنا

لخادمه حين يضيق به لكثرة قوله « حاضر » من غير أن يحضر :
— لا أحضر الله لك الخير !
ولكننا نرى أبا بكر يثور بصديقه ومضيفه عن شعور بالاخاء للخادم ورفقا به وكراهة للخشونة على هوان أمرها ويقول مستاء :
— والله ما يسرني اني قلتها وان لي الدنيا وما فيها!
أما عمر فكأن حسبه أن ترجح عنده هذه الكلمة الجافية نصف الدنيا !

أما عثمان رجل المال والاعمال الذي يعرف قيمة ما يملك فما زادت عنده هذه الكلمة على كرائم الابل وأغلاها ثمنا وكأنه يوشك أن يؤديها من حر ماله نقدا وعدا .
وقد تصح هذه الواقعة التي أوردها صاحب كتاب « الكامل » أو لا تصح بحذافيرها . ولكن الموضوع الذي تصوره الرواية — وهو الرأى فى هؤلاء السادة الكرام ومقدار ما فى خلقهم من مكرمة — يبقى صحيحا .
ففى أقل القليل ان الناس كانوا يعهدون فى أولئك الثلاثة خفض جانب وكراهة للفظاظة وحبا شديدا للرحمة والرفق بالضعفى وصغار السن ممن تحت أيديهم .
هذا واضح . ولكن أمرا آخر وراء هذا لابد من التنبه اليه : فها هنا ترتيب تنازلى لاستنكار كل واحد من الائمة الثلاثة للعنف مهما كان يسيرا .

فنحن هنا أمام ثلاث درجات من حرارة عاطفة الاستنكار والرحمة بعضها فوق بعض . أدناها ذلك الرجل المدقق المشتغل بالحياة العملية على ثراء فيه وكرم خلق . فهو يستنكر ولكن بحساب . ويسخو

سخاءا كبيرا مما يملكه فعــلا لا على ســـبيل الفرض والتخيل . ويذهب فى التضحية الى الحد الذى يطيقه من المال المعدود الناجز ...

وعمر رجل فيه حرارة الاندفاع ، ولـكنه لا ينسى فى حرارة اندفاعه واقع الدنيا فلا يتطرف فى استنكاره كل التطرف ...

اما صاحبنا : اما ابو بكر الوقور الدمث ، فها هنا اندفاع لا يحسب حسابا لشىء الا مطلق معنى الحق ومطلق قدسية القيمة .

وهكذا مرة أخرى نجد أنفسنا عند سلوك واحد بعينه وكأن نفسه قوس مشدودة تدمى عن منزع واحد !

هذا الرجل التاجر . العملى . المجامل . ما باله فى مواقف بعينها متطرفا مسرفا فى المثالية ؟!

لقد أحصينـــا مثاليته فى التمسك بالوعد . ولمن ؟ لمشرك كبير خطب لابنه ابنته وذلك حين جاءه خاطبا لها محمد بن عبد الله بقضه وقضيضه !

واحصينا مثاليته وتطرفه فى الاستنكار بحرارة تنم على ان العاطفة عنده متى استثيرت تملك صاحبها ولا يملـكها صاحبها !

فها هنـــا رجل يحب الرفق ويحرص عليه ولـكنه يغاضب صديقه الحميم ومضيفه وهو فى داره لهـذه الهنة الهينة حتى انه يبرأ من قول مثلها ولو أعطوه بها الدنيا وما فيها !

رفق شديد يعبر عنه أبو بكر فى هذا الموقف بحرارة شديدة وحدة شديدة .

ولـكنها ليست حدة الخشونة ، بل حدة الرحمة .

سمة ما ابعدها عن سمات التجار. وحرارة ما أبعدها عن حساب الربح والخسارة وتدبر العواقب على طرفى

الطمع والجزع .

او ليس عن هذه السمة صدر حين أسلم ، ما عكم وما تردد وما أحجم ، وترك مستقبل علاقاته وتجارته ومكانته تعصف بها الرياح الهوجاء ؟

بلى والله !

وانها لسمة تظهر كلما تعلق الامر بمطلق معنى الحق ومطلق قدسية القيمة .

وبعبارة أخرى :

انها قدسية المبدأ ...

فهذا التطرف نلمسه فى موطن الارتباط بالعهد . وفى موطن الرحمة للخادم أو العبد . أفلا نعهده فى موطن ازدراء أوثان شوهاء ؟ أفلا نعهده فى موطن الايمان بقادر فاطر الارض والسماء ؟

ما أقرب هذا الى العقل !

ومع ذلك فنحن نؤثر أن نستأنى لننظر فى بقية جوانب نفسه ، لنرى هل هذه السمة الحارة المتدفقة بالحماسة بمعزل عن جانب منها دون جانب ، أو هى فاشية فى تكوينه كله .

فاجتنبوني !

ان الاخبار عن حرارة طبع أبى بكر متـــواترة . تأخذ الدارس من كل فج وصوب . فها هو الطبرى يقول :

« نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ــ ليتم بعث أسامة ! الا لا يبقين أحد من جند اسامة الا خرج الى عسكره بالجرف !

« وقام أبو بكر فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال فيما قال :

ــ ... فان استقمت فتـــابعونى . وان زغت فقومونى . الا وان رســـول الله صلى الله عليه وسلم قبض وليس أحـــد من هذه الامـــة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها ! »

وهذا كلام واضح منه لـكل ذى عينين أن صاحبـــه « رجل مبدأ » . المبدأ عنده هو القائم . وهو السلطان الاعلى والمعيار الاوحد . وامام سلطان المبـــدأ يستوى جميع الناس . حتى « خليفة رســـول الله » . فان استقام ــ اى التزم المبدأ وهو هنا القانون الدينى ــ فعلى الناس طاعته ومتابعته فيما يأمر به . وان زاغ عنه فلا تهاون معه . وعلى الناس أن يتحولوا من متابعته وطاعته الى تقويمه .

المبدأ أو القانون له السيادة المطلقة على الجميع !
ويشفع هذا بالحجة الدامغة والمثل الناصع : فهذا « رسول الله » لم يكن استثناء من هذه القاعدة — على مكانته التي ليست مثلها عند الناس ثمة مكانة — فقد أبى محمد الا أن يعرض على الناس فى خطبته المشهورة الاقتصاص من شخصه حتى مات « وليس أحد من هذه الامة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها ! » فكيف يحق لأى أحد من هذه الامة — ولو كان « خليفة رسول الله » — أن تبدر منه مظلمة فى حق أحد من غير تقويم يصان به المبدأ وتتأيد به حرمة القانون ويتعزز به سلطانه الذى يرتفع فوق الاشخاص مهما أوتوا من سلطان ؟

الى هنا والموقف ناطق بأن أبا بكر كان رجل مبدأ الى آخر حد . ولكنه لأمر ما شفع تلك العبارات بعبارة تبدو من مستوى جديد . قال :

— الا وان لى شيطانا يعترينى . فاذا أتانى فاجتنبونى !

وانها لدعوة باعثة على الحيرة بين مطلبين متتاليين فى نفس واحد وسياق واحد :

ان زغت فقومونى !

واذا أتانى شيطانى فاجتنبونى !

كأنما هو ينبه الناس الى الفارق الحاسم — على الرغم من تشابه المواقف — بين الزيغ المألوف وبين ما سماه شيطانا يعتريه ...

وهو لم يكن يعنى بالشيطان الا حدة بالغة فى الغضب وغليان الطبع والاندفاع فى بعض المواطن .

وما من شك فى أن التعبير بهذا اليسر الشديد عن حدة الطبع بأنها شيطان يعتريه يدلنا على أمرين : أنه

حدة معهودة فيه لا يستغرب عارفوه أمرها فهي عندهم مفروغ منها ، وانها شديدة شدة بالفة لا يجد لها تأويلا أو تشبيها الا مس الشيطان ، ذلك انها تتجاوز كل حد.

وهذا حرى أن يدلنا على أمر ثالث لازم عما تقدم : انها حدة جامحة تعيى من يحاول كبح جماحها اذا غلت مراجلها وقذفت بحممها •

وعندئذ يستقيم السياق وترتفع الحيرة فى أمر الجمع بين طلب التقويم وطلب الاجتناب : فهو يقول للناس أن زغت فقومونى ، اللهم الا أن يكون الزيغ من قبيل تلك الحدة التى عبر عنها بفعل الشيطان لشدة عتوها ، فلا جدوى عندئذ من محاولة المعارضة والتقويم ، ولا حيلة للناس الا النجاة من عرامها باجتنابه حتى تزول عنه الفاشية ويثوب الى حاله التى يملك فيها عاطفته المتطامنة ولا تملكه فيها عاطفته الجامحة .

ونرى ابن أبى حديد ـ شارح نهج البلاغة ـ يستهول تعبير أبى بكر المجازى ويرى لزاما عليه أن يخفف وقعه على الناس ويرفع ما قد يكتنفنه أو يجره على بعض الاذهان الكليلة من اللبس ، فيقول :

ـ انما أراد بالشيطان الغضب • ولم يرد ان له شيطانا من مردة الجن يعتاده وينوبه ، والا لكان فى عداد المصروعين من المجانين . ما ادعى أحد على أبى بكر هذا ، لا من أوليائه ولا من أعدائه !

وهو احتراز حسن . وان لم تكن به لذوى الالباب حاجة .

ولكن يا له من غضب هذا الذى يلم بأبى بكر فلا يجد ذلك اللبق البليغ الا التعبير عنه على رءوس الاشهاد بأن شيطانا يعتريه ! وينصح الناس بايثار السلامة باجتنابه عندئذ بعد أن نصحهم مباشرة بالتصدى له ان

زاغ وانسوا منه انحرافا ! وانما هى الجائحة التى لا حيلة ولا لأحد فى كفها الى أن تزول كما تنتهى صـولة الاعصار !

ولـكن هذا الوصف لحدته ينبؤنا بشىء آخر : ان ذلك الغضب العاتى لم يكن يعتريه كثيرا. وانه فى مجموع سيرته والمعهود المألوف من أمره يبغض ذلك من نفسه أشد البغض ، وهو أول من ينكره ويعوذ منه ويبرأ ، وان لم يجد فيه حيلة الا نصح الناس بالابتعاد عنه .

وفى الـكناية عن هذا الجموح بالشيطان مغزى قوى : انه شىء لا يفهمه وانما يحس انه فريسة قوة مجهولة مسيطرة عليه لا يملك لها دفعا . فكأنه ليس الغاضب على الحقيقة ، وبالتالى ليس هو الجانى بل هو مجنى عليه كمن يستولى عليهم شيطان من الجن !

واما فيما عدا هذا فهو كما قال عنه ابن عباس :

ــ كان أبو بكر خيرا كله ، على حدة كانت فيه !

فالخير فيه ظاهر . والحدة فيه ظاهرة !

وليست تعنينا « الحدة » هنا لذاتها فحسب ، بل هى تعنينا بالاكثر لمدلولها الـكامن فى عامة طبعه وعناصر تكوينه أو نسيجه النفسى .

ويردنا هـذا الى الكلام عن معـادن الناس ومراتب وجودهم ولو تساووا فى المدارك والمعتقدات .

أبو بكر رجل مبدأ .

والمبدأ ، أو الحق المطلق ، قيمة القيم عنده .

ولكن هل كل من يدركون المبدأ أو يعرفونه سواسية فى معادن النفوس ، أو « مراتبها » ؟

أجل يردنا هذا الى الكلام عن مراتب الوجود البشرى. فكما أن الحيوان ليس كله رتبة واحدة فى كمالات الوجود. كذلك نوع الانسان ليس كله رتبة واحـدة فى كمالات

وجوده التى يمتاز بها على سائر الحيوان .

قد نقول أن لدى الناس كلهم « استطاعة » ادراك الحق المجرد والقيمة المجردة . لكن هــذه الاستطاعة لا تخرج عن كونها مثل غيرها من الاستطاعات البدنيــة والمعنوية .

ونوضح هذه المسألة بمثل نضربه من الامور المــادية التى يشترك الناس كافة فى استطاعتها من غير أن يعنى ذلك بالضرورة انهم سواء فى مدى هذه الاستطاعة اى فى « رتبتها » .

وليكن المثل الذى نضربه هنا : « الجرى »

فكلّ انسان سليم الاعضاء فى استطاعته أن يجرى . ولكن من هؤلاء من يبلغ فى هذه الاستطاعة حد القدرة الفائقة التى تجعل منه بطلا ســباقا ، ومنهم من يأخذه البهر بعد أمتار قليلة . بل ان الخيل — وهى حيوانات الركض والسبق — ليس كلّ حصان منها يصلح لميادين السباق ، وفى الســباق تتفاوت المراتب بين الخيول تفاوتا ترتفع بعضها باستطاعته الى قمة القــدرة ويهبط باستطاعته بعضها الآخر الى حضيض العجــز الذى يكاد ينفى عنها صفة الاستطاعة أصلا .

ومثل ذلك يقال فى الاستطاعات الحسية التى تحتاج الى مواهب خاصة كالرسم والغناء والعزف والفروسية. فما كل من خلط الالوان صاحب فن يعتد به . وما أشد التفاوت فى مجالات هذه الفنون بين القمة والحضيض.

وكذلك الحال فى شأن ادراك الحق ، أى المبدأ .

فكلنا مستطيعون — فرضا — أن ندرك الحق أو نفقه المبدأ . بيد أن ثمة تفاوتا بين طرفى مدى الاستطاعة هنا كما هو الحال فى كل استطاعة أخرى مما ضربنا له مثلا فيما تقدم .

فاذا ارتقينا الى مرتبـــة من يحسنون ادراك الحق باعتباره قيمة القيم أو المبـــدأ الاوحد لم نجد هؤلاء سواسية أيضا فى لواحق هذا الادراك الذهنى ، فما كل واحد منهم بحريص على التزامه فى سلوكه ذلك الالتزام النابع من الايمان الحقيقى بالقيمة أو المبـــدأ ، التزاما ترتخص فى سبيله الشهوات والمنافع والمطامع . بل أن منهم من يدرك الحق أو المبدأ بذهنه كل الادراك. ولكنه « يملك » هذا الادراك امتلاكه الدينـــار أو الســـلعة من شتى العروض التى يقتنيها الناس . فلـكل ســـلعة منهـــا قيمة تجارية ـ أى ثمن ـ يماكس بها ولا يتردد فى بذلها ان بدا له فى المقايضة عليهـــا ربح مجز حسب تقديره واعتباره .

وما هكذا الاعتقاد والايمان .

شتان !

صاحب السلعة تاجر : القيمة عنـــده مسخرة فى خدمته .

وصاحب العقيدة أو المبدأ عاشق أو عابد يضع نفسه فى خدمة القيمة بدون شرط أو قيد .

فبين مدركى الحق اذن فئتان :

فئة من يدركونه بعقولهم ولايدخل الايمان به قلوبهم . فهؤلاء لا يصبح الحق عندهم مبدأ أو عقيدة ، بل هم يتاجرون بما أدركوه بالبيع الصريح تارة ، وبالبيـــع الضمنى تارة أخرى ، وذلك فى ضـــور من التجاهل أحيانا ، ومن التواطؤ على الاهـــدار والانكار فى أكثر الاحيان ...

وفئة من يدركونه بعقولهم فيتحـــول لديهم الى مبدأ يستولى على وجدانهم كله . أو هم يدركونه بوجدانهم منذ البداية فيتجردون له ، بل يعيشـــون له ويمتنع

عليهم أن يكونوا له منكرين صراحة أو ضمنا .

ومن هذه الفئة الثانية أبو بكر ...

ولكن هذه الفئة التى تؤمن بالحق المطلق قيمة تنسخ جميع الرغائب من لذة أو منفعة أو مطمع أو سلطان ليست أيضا سواسية فى الاستمساك بالمبدأ : فمنهم من يرقى فى ذلك الى مراتب الشهداء بما يلاقيه فى سبيل التزام عقيدة الحق ، لا يهادن فى ذلك ولا يساوم . ولا يتزحزح قيد شعرة . ومنهم من يؤثر السلامة ويقول عند شبهة البلاء والمحنة : اللهم قد أعذرت ! ثم يكفيه من الصبر على المكروه فى سبيل المبدأ جهد المقل . وهؤلاء أصحاب « التقية » الذين يملكون عواطفهم دائما، ويرخصون لانفسهم اتقاء المكاره ودفعها باصطناع التنكر لما يضمرون من الاعتقاد .

وما كان من أصحاب التقية أبو بكر !

بل كان من المطبوعين على الشهادة ، وان لم يؤت الشهادة !

والى تكوينه النفسى « الحار » وطبيعته الوجدانية المتقدة نرجع فى تفسير هذا المنحى .

وهذا يردنا الى حدته التى سماها أحيانا شيطانا يعتريه ، فلا تكون له ولا لغيره حيلة فيه .

فهل كانت هذه السمة آفة طارئة عليه ، أو هى عارض من عوارض سجيته الفطرية ؟

من الناس من يملكون عاطفتهم حين تجيش ، ومنهم من تجيش عاطفتهم فيملكونها ما استطاعوا ثم تربو فى جيشانها فاذا هى كالبركان تملكهم حينئذ ولا يملكونها .

ومن هذا الطراز كان أبو بكر :

كان حارا كله : يفعل الفعل ويرى الرأى بكيانه كله ، لأنه رجل مبدأ : ورجل مبدأ من الطراز الذى يضع

نفسه بأجمعها فى خدمة مبدئه لا يعرف فى ذلك توسطا.
وانما جبله على ذلك من جعل مزاجه حارا جياشا لا يستطيع أن يقف من شيء موقفا وسطا ان مس مبداه . وهو يعرف فى نفسه هذه الحرارة فيبذل جهد المستميت لضبط نفسه ويفلح فى معظم الاحيان ، حتى اشتهر بالدماثة وطول الاناة والحلم !
من النقيض الى النقيض !
فلا بد للمحرك القوى من ضوابط قوية محكمة والا تعرض كل شيء للعطب والهلاك !
رجل من بنى تيم .
فى قلة نفر ، وصفر قامة ، حرفته التجارة ، وعمله متصل بالتحكيم والضمان والعدل ، وصلاته بالناس ينبغى لها الوقار والكياسة واللباقة .
صفات حسنة فى ظروف دقيقة .
ولكن يزيد من جلالها أن صاحبها مجبول على ما يضاد أكثر هذه السجايا . ومن هنا كانت حاجته الى ضبط نفسه أشد ، وكان فضله فى قدرته معظم الوقت على سريرته العاتية أعظم ، فكأنه يسوس فى معظم وقته العواصف ليجعلها ريحا رخاء ، ويروض الحمم ليجعلها بردا وسلاما !
كان وجدانا كله .
فاذا رق أسرف في الحنان ، وما أسرع ما تفيض بالدمع عيناه !
واذا ترفق غضب للضعيف واستنكر الخشونة والاستعلاء الهين حتى تحمر بالغضب عيناه .
واذا آمن كان فارس العقيدة الذى يقدم النفس والنفيس فى سبيل نصرة اعتقاده .
واذا استثيرت غيرته على المبدأ أو أحس استهانة به

لم يكن لغضبه حد ، حتى لينسى ضعف جسمه ورقة تكوينه وما يكتنفه من يأس ، فكأنما اعتراه شيطان !

رجل المبدأ هو .

ولكنه رجل المبدأ من طراز خاص : طراز النفس الجياشة التى يضبط أوامها فيكون قوة منظمة فاعلة بناءة جبارة .

وليس أدل على هـــذا الضرام المحتبس فى دخيلة التكوين من شواظ يصوره بلســـانه أنه من قبيل فعل الشياطين !

وهكذا أسلم!

ثمة اتفاق على أن أبا بكر كان أول من أسلم من الرجال . وان على بن أبى طالب كان أول من أسلم من الصبيان . وان زيد بن حارثة ـ الذى كان يعرف يومئذ باسم زيد بن محمد بالتبنى ـ كان أول من أسلم من الموالى . وأن خديجة بنت خويلد زوج محمد كانت أول من أسلم من النساء .

وكل هؤلاء ـ باستثناء أبى بكر ـ من خاصة أهل بيت محمد ، لأن محمدا كان يكفل على بن أبى طالب ويربيه فى بيته وتحت كنفه ويعوله تخفيفا من عمه أبى طالب لكثرة عياله وقلة ماله .

فاذا أضفنا الى هذا ما رواه ابن هشام من أن النبى قال :

ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم حين ذكرته له وما تردد فيه !

اجتمعت لنا قضيتان :

أولاهما : ان أبا بكر كان أول من أسلم من خارج خاصة أهل بيت محمد .

وأخراهما : ان أبا بكر لم يتردد ولم يجادل ، بل أسلم من فوره منذ عرض عليه محمد العقيدة الجديدة.

وما كان أبو بكر بالغر الساذج الذى له من حداثة السن نزق أهوج . فاندفاعته وهو فى السابعة والثلاثين أو يجاوزها بشهور اندفاعة ذى بصيرة يدرى ما يفعل !

وليس بكاف هنا فى تفسير اندفاعته تلك أن العقيدة الجديدة راقته ، وانه كان ينطوى على ضيق بالوثنية وازدراء لكل ما تمثله من عقيدة ويترتب عليها من سلوك .

كلا !

فغيره كثيرون راقتهم العقيدة وكانوا يضمرون ازدراء للأوثان ، ولكنهم ترددوا وانتظروا .

ويقول البعض أنه انما فعل ذلك لانه « لاموانع » لديه من قبول الاسلام فلا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة.

فهل حقيقة لم تكن فى حياة أبى بكر موانع تمنع أى رجل سواه فى مثل ظروفه من اعتناق الاسلام لاول وهلة وبغير تردد أو انتظار أو كبوة ؟

لقد عرفنا من أمر أبى بكر فى الجاهلية انه كان ــ على حد تعبير ابن هشام ــ « رجلا مالفا لقومه ، محببا سهلا . وكان انسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويالفونه لغير واحد من الامر : لعلمه وتجارته وحسن مجالسته » . وكلها صلات اجتماعية واقتصادية وثيقة تربطه من حيث العاطفة والمصلحة والمعاش والمكانة بالمجتمع الذى يعيش فيه .

ثم هو رجل من تيم . وهى التى وصفها أبو سفيان بأنها « أذل قبيلة فى قريش » . وقد يكون أبو سفيان مبالغا فى ذلك ، ولكنها ليست من أعز القبائل وأكثرها مناعة وسطوة وثراء ونفوذا على كل حال .

فرجل مثل أبي بكر عرك الدنيا لا يمكن أن يفوته معنى الخروج على ديانة الجماعة الى دين جديد لا عهد للناس به يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ، وانما هو تقطيع العلائق الوثيقة وكساد التجارة ، وتبدل الانس وحشة والمودة عداوة، وسقوط المكانة وضياع الهيبة، والتعرض للمهانة والايذاء فى النفس والمال . وليست له منعة من العدد العديد أو السطوة أو المعاظلة بالنسب الشامخ !

هي حياته كلها اذن من جميع وجوهها واقطارها تتعرض لما يقلبها بالاقدام على الاسلام راسا على عقب ، وبغير أمل فى حماية أو صيان .

ثم هو أول داخل فى الدين الجديد فهو لا ينتظر أن يجد فيه رفاقا يبذلون له الحماية ويكفلون له المنعة . وانما هو يترك الذمة الى الاضطراب ، والامن الى الهول، والكرامة الى الويل ، ونفاق التجارة الى احتمال الكساد والمقاطعة .

أفتكون فوق هذه كلها موانع عند رجل فى مثل حاله وموضعه ؟

لا اظن !

وما هو بالحدث الغر حتى يقتحم الهول اقتحاما اعمى غافلا عما كان من أمره وما سيكون !

فما سر هذا الاسراع ، الذى نصفه بالاقتحام ولا يكفى فى وصفه الاندفاع ؟

هذا الوقور المألوف المحبب الى قومه لا يمكن الا أن يكون قد لمح كل عناصر الموقف فى فطنة ، وما كان يضيره أن يتريث ويتدبر — ان استطاع ! — ولكنه أقدم . بل اقتحم !

لا تفسير يقبله العقل أمام هذه الموانع الشتى الا أن يكون قد « جرفها » دافع من نوع آخر ، دافع أقوى

من هذه الموانع كلها فلم تقف أمامه طرفة عين ، وكأن طوفانا عارما اكتسح السـدود على كثرتها فلم تتبق منها باقية ...

هـذا العامل المضاد لجميع الموانع ، المباين لها فى النوع والكنه ـ وكلها موانع مادية واجتماعية واضحة ظاهرة ـ لابد أن يكون عاملا نفسيا باطنا ...

ومرة أخرى ها نحن نجد أنفسنا وجها لوجه أمام طبيعة أبى بكر الجياشة وعاطفته التى تستثار فتملكه ولا يملكها .

بهذا . وبهذا وحده . نعقل أسلام أبى بكر على الوجه الذى أسلم به متميزا ، بل متفردا ...

فهو قد أسلم اذن لا عن انتفاء الموانع بل على الرغم من تنوع الموانع وسطوتها .

أسلم لأن العقيدة الجديدة استثارت عاطفته الجياشة ، فكأنما وجد فيها نفسه بعد طول افتقاد ... ورأى الدنيا فى جانب بكل ما فيها ومن فيها من العلائق والمنافع ، ورأى نفسه الحقيقية فى جانب آخر ، فاقتحم مندفعا الى الجانب الذى وجد فيه حقيقة نفسه .

« ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ »

كلمة السيد المسيح ، وما أصدقها !

ثم كيف ترانا نتصور أبا بكر وقد تريث يفكر ؟

نراه يوازن بين الموانع والموجبات ، ويرجع بينها . فكأنها عنده متقاربة القيمة يحتاج الى وقت ومراجعة ليتبين أى الجانبين يمكن أن يكون له عنده الرجحان ...

وهذا فى حد ذاته ـ لو انه حدث من أبى بكر ـ يجعل أبا بكر ليس أبا بكر ! يجعله شخصا آخر يمكن أن تنعقد عنده مقارنة تتضمن التقارب بين قيمة كل ما تمثله

الدنيا وبين ما يمثله الدين الجديد من قيم . ومثل هذا الشخص لا تكون له العاطفة الجياشـــة التى اجتمعت لأبى بكر .

أما وأبو بكر هو أبو بكر ، فما كان ليسلم الا اقتحاما على نحو ما أسلم : ما تردد . وما كبا . وما عكم .!

ولو أنه تردد ووازن لـكان معنى هذا أن العقيـدة الجديدة لم تستثر عاطفته الجياشـة . ولصار أمر الترجيح على مستوى واحد من قياس المنافع والمضار . وعلى هذا المستوى كان الاحرى أن يكون للموانع المتنوعة أشد الرجحان ، بما يمثله التزامها من منفعة وأمان وما ينذر به الخروج عليها من القوارع والخسران .

كانت الأسبق

لقد رأينا « كيف أسلم » أبو بكر .

فعلام يدل انه كان أول من أسلم من خارج خاصة آل بيت النبي الاقربين ؟

من بدائه الامور أن النبي بشر أهل بيته أولا ، ثم الناس أقربهم اليه فالاقرب .

فأبو بكر اذن من أوائل من توجه اليهم النبي بالدعوة بعد أهل بيته وأعمامه وبني أعمامه .

فأما من كانت لهم في الاسلام كبوة أو تردد وانتظار ، فمنهم ولا شك نفر من ذوي قرباه . فلم يقبل الاسلام الا ابن عمه الصبي علي بن أبي طالب الذي يعيش في كنفه . اما بقية آل أبي طالب ، واما بقية بني عبد المطلب جميعا (وعبد المطلب جده مباشرة) فلم يدخل منهم في الاسلام أحد في ذلك الطور .

وأبو بكر ليس من هؤلاء ، وليس من بني هاشم كافة . وانما هو من عشيرة أخرى من عشائر قريش . فبماذا نعلل أن يكون أبو بكر من أوائل من توجه اليهم النبي بالدعوة ، وأنه كان بالفعل أولهم وأسرعهم استجابة ؟

وينبغي أن نلاحظ قبل كل شيء أن العقيدة يومئذ كانت مضموناتها أبعد ما تكون عن التفصيل ، وانما هي بعد في اجمالها ولبابها الاصيل ، فيحتاج من يعتنقها في

ذلك الطور حتما الى ثقة بالداعي اليها ـ وهو محمد ـ تحمله على قبول هذا الجديد الغريب ...

وخارج نطاق أهل بيت محمد الاقربين جدا لم يجبه من قرابته أحد على ما لهم به من ثقة قديمة .

فما الذى حمل أبا بكر اذن على الاستجابة للاسلام تلك الاستجابة التى وصفناها بأنها أقرب الى معنى الاقتحام ؟

ليس يكفى القول بأن محمد بن عبد الله كان «الامين» الذى تعرف قريش صدقه وأمانته وكريم أخلاقه . فقد كان ذوو قرابته من بنى عبد المطلب ـ فضلا عن بنى هاشم ـ يعرفون هذا كما تعرفه سائر قريش ، بل واكثر مما تعرفه . ولم يكن هذا كافيا عندهم مع ذلك كى يقبل الاسلام أحد منهم بغير تردد كما فعل أبو بكر!

فلا بد اذن من سبب فوق هذا السبب المألوف فى تعليل الثقة الدافعة الى التصديق القاضية على الموانع.

ولا بد لكل شىء يحدث فى الكون من « سبب كاف » . أما الاسباب التى دون الكفاية فلا تحدث النتيجة التى نبحث لها من تعليل وتفسير .

فما هو اذن هذا « السبب الكافى » ليكون أبو بكر أول من أسلم مفتتحا ، بل مقتحما طريق الاهوال ، وليكون اسلامه اندفاعة لا تعرف التردد والمراوحة بين عوامل الاحجام والاقبال ؟

دواعى الثقة الشائعة فى قريش بمحمد بن عبد الله غير كافية لهذا التفسير ، والا لكانت كافية لدخول أكثرية قريش فيما دخل فيه أبو بكر ، وعلى نحو ما دخل أبو بكر .

لابد اذن من سبب فوق الثقة ، وأقوى منها بما لا يقاس .

فأى شيء عساه يكون هذا السبب ؟ وبأى اسم من الاسماء المعهودة فى شمائل الناس ندعوه ؟

ان الثقة اقتناع بالشخص تأسيسا على سوابقه فى التعامل .

ومحمد بن عبد الله لم يأت الناس بحديث عن شيء من قبيل ما ألفوا التعامل فيه معه أو مع سواه . فما هو بحديث تجارة . ولا بحديث رواية أو عيان كسائر ما يرويه الرواة ويشاهده المشاهدون . ولكن الذى يرويه استجاش عاطفة أبى بكر واستولى على مجموع نفسه حين نبذ كل شيء وبايعه على الايمان بدعوته .

فالسر اذن — أو بعض هذا السر على الاقل ! — فيما كان يجول بنفس أبى بكر قبل أن يلقاه محمد بما لقيه به : فقد كان أبو بكر على يقين بلا شك من ضلال الوثنية . ولكنه كان — هو نفسه — لا يدرى ماذا يكون وجه الحق بخلاف ذلك ، ولا ماذا يكون الهدى .

أكان على حد تعبير سقراط كالجاهل الذى مبلغ علمه أنه جاهل ، فهو مشتغل بعد ذلك بالبحث عن المعرفة ، وهو بهذا المتميز بأنه أعلم الجهال ؟

أكبر الظن انه كان كذلك !

فلو أنه عرف الهدى من نفسه لما كانت له الى الهدى من غيره حاجة !

كان شأنه شأن المبصر ضاق من حوله بالظلمة ضاربة بجرانها ، وكان يحس أنه لابد من نور ، لكنه لايدرى من أين . ولا كيف يكون هذا النور الذى تنقشع عن وجهه الظلمات .

ولو أنه أنس من نفسه ذلك النور ، لما كانت له الى سراج من عند غيره هذه اللهفة .

ولكن ماذا يدريه ان هذا الذى يحمله اليه ذاك

« الغير » هو النور المنشود ، وما رآه يعرض عليه منه الا قبسا ؟

أهى الثقة ؟

لقد فرغنا من قبل من أمر الثقة ، وانها لم تكن كافية بمعناها الدارج ، فلا بد اذن من مستوى خاص يتكفل بالثقة على هذا المستوى الخارق .

انه شيء ليس فيما كان يدور بنفس أبى بكر فحسب ، بل شيء يتعلق أيضا بالبشير الذى اهتدى بهداه على الفور ...

ولا يمكن أن يكون تصديقا بمجهول ، أو معروف على المستوى المألوف من التعارف بين أهل قرية واحدة... فقد كان أولى بذلك — لو أنه كان كافيا — عترة محمد من بنى عبد المطلب ...

هو اذن شيء أكثر من ثقة المعرفة ، أو ثقة القرابة .

انه ثقة التآلف الروحى الذى يسقط جميع الحواجز ، ولا يحتاج الى أسباب ومعاذير .

نوع سام من الحب هو .

حب يندر أن يقع الا بين الاصفياء من بنى البشر ، ولكنه حين يقع يشع نورا يميزه من سائر العلاقات المألوفة كما يتميز الماس عن سائر أنواع الخرز والزجاج .

كان يملؤه هذا الحب الذى لا يستطيعه ولا يرقى اليه الا أمثال أبى بكر قبل الدعوة بسنين فيما نرى ، لأن هذا الحب هو الذى يمكن له وحده أن يفسر « انفتاح » قلب أبى بكر بهذه السهولة وارتماءه فى احضان العقيدة الجديدة .

ولم تكن بينهما معرفة عادية كالتى تكون بين أبناء الحى الواحد والحرفة الواحدة ، ولا الثقة التى تعم بمألوفها كل غاد ورائح فى مدينة لايزيد حجمها يومئذ على

حجم قرية كبيرة من قرانا الحديثة .

ولكن ما الذى أذكى هذا الحب ؟

أكثر من عامل واحد ، بعضها يرجع الى تكوين أبى بكر ، وبعضها يرجع الى ظروف مكة وسائر العرب ، وبعضها يرجع الى حرفة أبى بكر وهى التجارة . بل ان اجتماع هذه العوامل هو السر الاكبر فى اذكاء هذا الحب واعداد نفس أبى بكر له فى ذلك الحين .

فابو بكر ـ أولا ـ رجل شديد الحساسية عاطفى النزعة . والعاطفيون مثاليون متطرفون فى الاعتداد بما للأعمال من مدلولات أكثر من اعتدادهم بظاهرها . أو بعبارة أخرى يعنيهم « أسلوب » العمل و « كيفه » قبل أن يعنيهم ظاهره وكمه . يأسرهم المعروف وان كان زهيدا ، وتثيرهم الاساءة والاستهانة وان كانت هنة هينة . ولا يخيب من يخاطب نجدتهم وأريحيتهم وان كلفهم ذلك الجليل من الخطب .

ثم ان أبا بكر ـ ثانيا ـ رجل حرفته التجارة . وما أدراك ما التجارة ! ليس كمثلها محك لمعادن النفوس. تلقى الرجل فيعجبك مظهره ومنصبه ، ويبهرك وعظه ، ويفتنك تشدقه بالمبادىء والشعارات ، حتى اذا تعلق الامر بمصلحة يجنيها أو غرم يغرمه مهما كانت المصلحة المادية غنما هينا ، أو كان الغرم سهلا يسيرا ، وجدت منه نقيض ما كان يتشدق به ! فاذا بالكبير وقد انقلب أصغر الصغراء ، وبذى المنصب وقد غدا أحقر الحقراء ، وكأنه الكلب أسالت لعابه قطعة من العظم مطروحة بالعراء ! لا يتورع الواحد منهم عن نكث العهد والخديعة والغش والغدر والنكول !

ويقلب أبو بكر وجهه فلا يجد من الناس الا نحوا من ذلك فتركبه الغصائص ، وينتفض بالغيظ والكمد ،

ولا حيلة له فى طبائع الناس ، ولا منصرف له فى الوقت نفسه عن التعامل معهم ، لأن التجارة معاملة ، وهو كلما مر بهم تكشفوا له عن عدو فى ثياب صديق ، وعن خشاش وغربان ، فى طيالس الجاه والسلطان ، أو فى مسوح ذوى العفة والصيان !

كرب ليس مثله للنفس الحساسة كرب !

ولا مفر من احدى خطتين لمن كان شديد التأذى من هذه الخلال الشائعة شيوع الاطلاق على وجه التقريب :

فاما أن ينقلب فاتكا ناقما على البشرية كافرا بكل خير ، يهدم كل عامر ، ويقوض كل قائم ، ويثأر من الناس كافة بغير تفريق أو تدقيق ، فكلهم « سهافل وابن سافل وذو نسب فى الاسفلين عريق » — وهذا نمط الخارجين على المجتمع والقانون .

واما أن ينقلب ناسكا أو كالناسك ، يلوذ بايمانه بقيم الحق والصدق والفضل ، وهو منطو على مضاضة ، ضيق الصدر بما يشاهده فى كل لحظة ، وما يجده فى كل انسان . ولا يكاد يرى للقيم التى يؤمن بها موئلا الا فى ذات نفسه ، فيفيض على الناس يائسا من الجزاء والشكر ، يعاملهم لا بما يستحقون — كما يفعل الخارجون على القانون — بل بما يستحق هو من رعاية وجه الحق والخير ، لا رعاية الآحاد من البشر .

وتلك محنة ليست مثلها محنة ، فلا يفرج من كربها ثار ، ولا يخفف من كظمها الا ثوران ينفلت أحيانا من جميع الكوابح — على شدتها — فيتراءى للناس كمس من الشيطان !

وفى مثل تلك الحال من الوحشة الاليمة لابد أن يكون أبو بكر على أتم ما يكون من التلهف للاندماج روحيا فى شخص الرجل الذى يجد عنده مصداق

ايمانه بالقيم الرفيعة ، بالفعل لا بالقول فحسب ، فلا محالة يكون حبه له حب التفانى والولاء الذى ليس له حد .

وهل فى بلد حجمها حجم قرية عصرية ، وفى حى واحد منها هو حى التجار ، يمكن الا يلتقى محمد بن عبد الله بأبى بكر ؟

وهل يمكن ، واحدهما مؤهل النفس كأنه قطعة من الحديد حائرة بائرة الا ينجذب انجذابا خارقا نحو الآخر وهو بالنسبة له كقطب مغناطيسى بالغ القوة ؟

ان كانا التقيا ـ وهما بلا شك قد التقيا ! ـ فحتم أوجب الحتم أن يكون قد نشأ بينهما ذلك الحب القوى ، وحتم أوجب الحتم أن يكون أبو بكر قد وجد فى محمد ابن عبد الله ما يجده الظامىء فى الماء ، وما يجده المدلج السارى وسط الظلمة الظلماء فى الكوكب الدرى ، بل ما يجده اليائس من الحياة فى مناط الأمل ومعقد الرجاء !

وللأوباش فى هذه الاهبة النفسية لدى أبى بكر فضل غير منكور ـ وان يكن غير مشكور ! ـ فلولا نارهم ما كانت لتنضج هذه الاهبة النفسية الى هذا الحد عند أبى بكر !

ورب ضارة نافعة !

ولاريب كان هذا التأهب الشديد ما انطوى عليه أبو بكر ومحمد بعد فى دور التحنث والاختلاء ، حتى اذا بلغ الزمان تمامه ، وجهر محمد بدعوته ، لا عجب أن يكون أول من يأنس فيه الخير بعد خاصة أهله أبو بكر .

ولم يخب فيه ظنه ، فما من أحد ـ حتى بنى عبد المطلب وبنى هاشم ! ـ الا اخذته فى الاسلام كبوة أو

نظر أو تردد . أما أبو بكر فما عكم وما تردد وما كبا .

أكانت تلك اذن قرائن معرفة عادية ، كمعرفة الآحاد من عرض الناس أو أبناء القرية الواحدة كما ذهب اليه بعض المؤلفين ؟

كلا !

وانما هو « الحب العظيم الفذ » وراء هذا الايمان الفذ !

أجل ! هو الحب القلبي الطاغي وليس الاقتناع الذهني الرصين الحذر . عشق روحي جارف ليس حسبة منطقية باردة لا حماسة فيها ولا حركة ، فضلا عن الاندفاع والاقتحام ! فالاقتناع ان وجدت معه حركة فهي نتيجة قد تنجم عنه أو لا تنجم ، وليست هي هو ... وليس هكذا الحب !

حب عظيم أساسه الشعور بحضور المثل الاعلى الذي كان يحلم به العاشق ، فاذا « المطلق » الذي تعلق به قلبه وقد تمثل في فرد من البشر . وانه ليدرك بقلبه مراميه وآفاق تخليقه الخارق ، ولكنه لا يجد في نفسه تمام القدرة على مثل صنيعه ، فيعيره روحه يشاركه قوة جناحه في اقرار واعجاب وخشوع .

ولولا الصفاء الروحي الشديد لانقلب صاحب هذا التكوين حاسدا ناقما . ولكن أبا بكر نسي في صفائه انانيته وذاب في مثله الاعلى ، فصار حواريه الاول ، وتابعه الامثل . وأمثال محمد لا يكون لهم الناس الا عاشقين أو حاسدين ناقمين !

وما اشبه التابع والمتبوع في كثير من المزايا والخلال . ولكنه التشابه في الاتجاه والصفاء ، مع التفاوت في الاقتدار ...

وبغير هذا « الحب العظيم » يمتنع فهم هذا الاسلوب

فى الايمان بغير تردد أو تفكير فى العواقب التي تحيق برجل حرفته التجارة ، وصلاته بالناس أساسها الود ولين المهاد والكياسة وحسن السياسة .

محمد فى هذا الحب تمثل فيه « المبدأ » و «المطلق» بشرا سويا . وكان أبو بكر مثل من ينشد ضالة يحسبها شوقا غامضا فى نفسه ، فاذا به يجدها متبلورة كأصفى ما تكون فى شخص آخر ، فتعلق به تعلقه بكل ما فى قلبه من شوق !

وهو هيام ليس كمثله هيام مما يعهده الناس فى سائر أحوالهم الحسية .

لقد صار محمد عند أبي بكر تجسيد «المبدأ المطلق»، فكل ما جال بنفسه وجده فيه على صورة أوفى وأتم ، فالقى قلبه كله اليه حين أسلم ، ولم يتصور كيف يمكن أن يتحول عنه من « رآه » بعين البصيرة فى مثل ذلك النور الباهر .

وهكذا كان أبو بكر نمطا وحده فى ولائه لمحمد ، لأنه ولاء « استوعب » نفسه كلها ، ولم يترك فيها بقية للتفكير فى شىء ذى بال .

انه استيعاب ...

أو هو — ان شئنا التعبير بلغة بعض المحدثين — « استقطاب » ...

وفى ذلك الاستيعاب أو الاستقطاب نجد تفسير كل سلوك أبي بكر بعد اعتناقه الاسلام ، اعتناقا أشبه ما يكون بالاقتحام ...

کانٹے فتحا'...

تغيير العقيدة السائدة الى عقيدة جديدة كل الجدة لا عهد لأحد بها من قبل مسالة جد خطيرة .

وقد تكون العقيدة السائدة متداعية ، أو قد تكون محتقرة من ذوى الفطنة والنفوس المفطورة على النبل والكرامة ، كما يعاف الاطهار القذارة والنجاسة بوحى من جبلتهم من غير تعليم سابق ، ويكون بهم شوق الى الجو النظيف والبيئة المبرأة من الدنس يلتمسونه ويتمنونه .

وكان هذا بلا شك رأى نخبة من القرشيين فى ديانة الاوثان السائدة فى الجاهلية . ولكن ثمة فرقا كبيرا بين هذا الموقف وبين « الاقتحام » الذى أقدم عليه أبو بكر حين بادر الى الاسلام « ما عكم وما تردد »...

فذلك الاقتحام يحتاج الى قوة نفسية نادرة ، والى شجاعة تصغر فى جانبها شجاعة المقاتلين فى ساحات القتال ... لان شجاعة المقاتل تساير تيار المعركة الدافق . اما شجاعة الخروج على العقيدة السائدة الى عقيدة ليس لها تاريخ وليس لها اتباع يشدون بروح الجماعة من أزره ويؤنسون وحشته ويطمئنون نوازع القلق لديه فهى شجاعة لا تساير التيار الاجتماعى الجارف ، بل تتصدى له منفردة .

فلئن كان أبو بكر أول من « اقتحم » فى هذا

الاتجاه ، فهو لم يكن الوحيـــد من رجال قريش فى اشمئزازه من الاوثان وما ترمز له من حيـــاة التبذل والاسفاف .

ولذا كان « اقتحامه » وهو الوقور الفاضل العارف بطبائع الناس وانسابهم عاملا فعالا فى « حفز » همم نفر من أولئك الاخيار بعد أن فعل ما ترددوا فيه ، فأصبح الاقدام على آثاره الـــرائدة ضربا من الممـكن ، وكان يبدو لهم قبله ضربا من المستحيل .

يقول ابن هشام :

« ... وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر : لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو الى الله والى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه .. » .

ولما كان الشبيه يجتذب الشبيه ، فلا عجب أن يكون من يألفون أبا بكر ممن يشبهونه أو يقاربونه فى صـــفاء النفس ونبل المقصد والانفة من الارجاس ومن ذوى الفضل ومحبى الخير ..

يقول ابن هشام :

« فأسلم بدعائه ١ ـ عثمان بن عفان بن أبى العاص ابن أمية ـ ٢ ـ والزبير بن العوام بن خويلد (ابن صفية بنت عبد المطلب عمة النبى) ! ـ ٣ ـ وعبد الرحمن ابن عوف ـ ٤ ـ وســـعد بن أبى وقاص بن أهيب (وأهيب عم آمنة بنت وهب أم النبى !) ـ ٥ ـ وطلحة ابن عبيد الله .. »

يسوق ابن هشـــام هذا الخبر فى هـــدوء السرد الاخبارى . ولـكنه سرد لا تسرى فيه حرارة الحياة ان لم تنفخ فيه المخيلة من روحها كى نرى رجالا فيهم ابن عمة محمد ، وحفيد عم أمه ، لا يؤمنون بما جاء به

محمد الا بعد أن رأوا أبا بكر يؤمن به !

انهم — وعلى غرارهم كثيرون غيرهم — كانوا يرون في وثنية قريش أسوأ رأى . هذا أمر لا خلاف عليه . ولكن هذا — في حد ذاته — غير كاف للايمان بما يأتيهم في نقضه أول مناد بعقيدة جديدة ، وان كان معروفا بالامانة وصدق القول من قبل .

أما وهذا الداعية لا يتردد في الايمان بهذا النبي في جرأة تصل الى الاقتحام ، وهو رجل فاضل وقور ، فتلك « وثيقة ضمان » أشبه بالمستندات المعتمدة في عالم التجارة والاعمال .

ولولا « الحب العظيم » الذى غمر قلب ابى بكر لمحمد ابن عبد الله لما كان هذا الايمان الجارف . ولولا ذلك الايمان الذى تجلى به حب أبى بكر لمحمد بن عبد الله حجة لا تقبل التسفيه أو الانكار عند هؤلاء القوم لما انهارت سدود التردد والارتياب في نفوسهم أمام طوفان هذا الحب والتصديق والتوقير ، فاقبلوا ليكونوا أول باقة ، بل أول رعيل من المؤمنين بعد أهل البيت ، وبعد صاحبه وحواريه الاول .

وهكذا كان ايمان أبى بكر بمثابة أول فتح أتاحه الله على الاسلام ! فمنذ آمن هؤلاء النفر تحول الاسلام من « ظاهرة بيتية » الى عقيدة طائفة من الرجال ، فصار للاسلام وضعه الاجتماعى المستقل في مجتمع قريش .

وهو وضع قد يستثير العداء والعدوان ، ولكنه لا يستثيرهما الا لانه « ظاهرة » لها وزنها وخطرها ، ولا يمكن التغاضى عنها ...

وحسب اسلام أبى بكر هذه النتائج المباشرة كى يكون ذلك الفتح الاول والجليل من فتوح الاسلام .

وهو فتح تفرد بصنعه هذا « الحب العظيم » .

وكان يعلم بفطرة الحس الباطن أو الشعور الكامن ـ ان لم يكن بالوعي الواضح الظاهر ـ ان اقامة « واجهة علنية » هي الشرط الاول لتحول العقيدة الى دعوة ، او تحول « الظاهرة البيتية » الخصوصية التى لا تكاد تعنى أحداً ، الى « ظاهرة اجتماعية » تعنى جميع الناس ، لأنهم لن يكونوا بعد اقامة هذه الواجهة العلنية الا أحد رجلين : اما محبذ يدخل فى الدعوة الجديدة ، واما ناقم على هذه الدعوة التى تحول الناس عن قديم اعتقادهم ، بما تمنحهم من « رؤية جديدة » يتغير بها سائر « المنظور الاجتماعى والوجدانى والكونى » تغيراً حاسماً بمثابة الانتقال من النقيض الى النقيض .

فبغير الدعوة لا تكون العقيدة ديناً عاماً . وبغير « الواجهة العلنية » لا تبدأ الدعوة بدايتها العملية ..

نقول بدايتها العملية تمييزاً عن البداية النظرية التى قام بها المكلف أساساً بهذه الدعوة ، وهو الرسول نفسه .

وصاحب كل دعوة الى نفسه ورأيه حرى أن يجد مقاومة حاضرة بلا روية . اما صاحب الدعوة الى غيره فحرى أن يجد الروية والاستعداد بعض الشيء للنظر فيما يقول ، لأنه ليس صاحب المصلحة الاولى فيما يدعو اليه . ولأن ما حمله على الدخول فى هذه الدعوة ـ وهو مثلهم غريب منها وعن صاحبها ـ داع للتأمل ، لأن حكمه فى القبول والرفض هو بعينه حكمهم .

وبذلك أتيح لهذا « الحوارى الاول » أن يجلب الى باحة الاسلام أول رعيل من المؤمنين .

وبذلك أيضاً ثابر أبو بكر على ما يسره الله له مثابرة المتحمس المصر ... الذى يعلم أن مسلكه هذا أوسع السبل لاقامة « الواجهة العلنية » التى لابد منها لتحويل

الاسلام الى « الوجود العام » .

يقول ابن هشام رواية عن عائشة بنت أبى بكر :

« وكان لأبى بكر مصلى اتخذها عند باب داره فى بنى جمح ، فكان يصلى فيها . وكان رجلا رقيقا اذا قرأ القرآن بكى ! فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته . فمشى رجال من قريش الى ابن الدغنة سيد الاحابيش (وكان قد أجار أبا بكر) فقالوا له :

ـ يا ابن الدغنة ! انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ! انه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى . وكانت له هيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم . فأته ، فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء !

« فمشى ابن الدغنة اليه فقال :

ـ يا أبا بكر ! انى لم أجرك لتؤذى قومك ! انهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ! وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت !

فقال أبو بكر :

ـ أو أرد عنك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

فقال ابن الدغنة :

ـ فاردد على جوارى !

قال أبو بكر :

ـ قد رددته عليك ! »

وهذا كلام ناطق بذاته . لم يكن حسبه أن يصلى بينه وبين ربه ، بل الناس أراد بهذه العلانية ! وكانت حماسته للدين الجديد وحبه الفائق لرسوله يفجران منه الدمع اذا قرأ القرآن ! فكان ذلك أول « عرض بالصوت والصورة » فى الدعاية الى الاسلام ، على أرقى

الاصول الفنية التى لا تستخدم الاسلوب المباشر ، وانما هو العرض الجميل الحى القوى الخاشع الذى يستهوى الافئدة ، والقدوة التى تفعل فعلها الطبيعى على مهل .. !

***

لقد الهم هذا « الحوارى الاول » خير واجبات الحوارى الداعية الذى ينوب عن رسوله فيفعل للدعوة أقصى ما يفعله الحوارى النصير البارع الفطن !

وماذا يكون الفتح المبين ، ان لم يكن هذا أول فتح من فتوح الاسلام فى عاصمة الاوثان !

استهوى الافئدة المهيأة ، واقنع العقول المستعدة المترددة ، وأقام للاسلام « أول كتيبة » من النصراء ، ومضى يستفتح قلوب غيرهم بغير تحديد شخصى ، وانما هى سياسة « الباب المفتوح » لكل من ييسره الله لهداه .

وما كان هذا « الباب المفتوح » ليجدى لولا أن وراءه ذلك الحنان والخشوع والسمت الرقيق الرحيم. وكلها ثمار العاطفة الجياشة لدى ذلك الرجل الذى اذا جاشت عاطفته بات وهى تملكه ولا يملكها ...

ثمرة مباركة لشجرة مباركة ...

هى شجرة ذلك الحب العظيم ...

هذا الحب العظيم ...

وهل من شيء سوى « الحب العظيم » يفسر لنا ما تصدى له ابو بكر ، ليكون « حوارى محمد » بكل معانى هذه الصفة الجليلة ، متحملا فى سبيل هذا التصدى صنوف الايذاء فى شخصه ، وهو الرجل الحريص على الوقار والموادعة ؟

لم تكن الثلة الاولى من المسلمين ــ وكثيرون منهم أسلموا بدعوة أبى بكر أو دعوة من أسلموا على يده ــ تكاد تبلغ الاربعين . واذا بهذا الحوارى وقد الهم دوره الضخم فى نقل الاسلام من السر الى العلن ، ومن ظاهرة بيتية الى ظاهرة اجتماعية تزداد ضخامة وعددا ، وتستثير الاهتمام مهما كان ثمن ذلك استجلاب المعاطب والمغانم ، فهو يقترح على النبى أن يجتمعوا علنا فى الكعبة .

وهناك نهض ابو بكر بما الهمه من مسئولية الحوارى وفى مقدمتها أمانة الدعاء أو الدعوة ــ او لعلها ما يسمونه بلغة هذه الايام « مسئولية الاعلام » ــ وكانت الخطابة فى الجموع السبيل الاوفى فى هذا المضمار .

نهض أبو بكر ــ حوارى محمد ــ يتكلم عن دينه ويدعو الناس اليه . وفى الكعبة مجتمع الخاصة والعامة من قريش ، فكان ذلك عنوان التصدى ، أو هو التحرش

الذى يستثير المناواة لانها الثمن الحتمى لاستثـــارة الاذهان واسترعاء الاهتمام ...

وكان لابد مما ليس منه بد .

كان لابد مما كان أبو بكر يعلم سلفا انه كائن حتما حين أشار به على النبى .

ثارت ثائرة قريش ، وانهالوا على هـذه الجماعة ، وعلى رءوسها بصفة خاصة ، بالضرب والايذاء . وكان طبيعيا أن ينال أبا بكر النصيب الاوفى من ذلك ، وهو الرجل الصغير الهامة الدقيق التكوين . ويقال ان جبارا من المشركين ظل يضرب وجه أبا بكر بالنعال حتى تورم وجهه واختلطت معالمه ... ولم ينقذه من موت محقق الا مسارعة جماعة من قبيلته تيم وقد ســـمعوا بما يحدث له ، فخلصوه من يد الرجل وحملوه الى بيتـه مشكوكا فى حياته ... حتى لقد تواعدوا أن يثاروا له من قاتله عتبة بن ربيعة .

وبعد لاى أفاق أبو بكر من غشيته وهو على فراشـه فلم يسأل الا عن شىء واحد : ماذا كان من أمر محمد ؟

ولا يصدر مثل هذا السؤال فى مثل هذا الموقف الا من حب أشبه بحب الام وليدها ، تستهين بحياتها ولا يعنيها الا أن يكون سالما معافى .

وسخطت عشيرته منه هذا التفانى الذى انساه أمر نفسه وهو موف على التلف . وتقدمت أمه تعرض عليه طعاما يقيم أوده أو شربة لبن ، فما زاده ذلك الا امعانا فى السؤال ، وأبى أن يضع فى فمه شيئا قبل أن يطمئن على ما كان من أمر نبيه .

فقالت أمه :

ــ والله ما أعلم بصاحبك !

قال :

ـ فاذهبي الى بنت الخطاب فاسأليها عنه .

وكانت أخت عمر قد أسلمت خلسة ، فلما جاءتها أم أبي بكر خشيت أن تكون من جواسيس المشركين يبتطلعون طلعها ، فزعمت أنها لا تعرف أبا بكر ولا محمدا ...

وبعد أخذ ورد بين المرأتين ذهبت بنت الخطاب مع أم أبي بكر الى حيث يرقد لترى بعينها وتستوثق لنفسها . فلما شهدت سوء حاله أخذتها الرحمة به فبكت واستصرخت السماء أن تثأر لما ناله من أولئك الظلمة الفسقة ! ولكن أبا بكر لم يلق باله الى صراخها وغضبها لحاله ، وألح عليها بالسؤال :

ـ ما فعل رسول الله ؟

فقالت له انها تخشى أن تسمع أمه مقالتها ! فالى هذا الحد كانت النقمة وخوف الخطر على من يسلم فى تلك الفترة ، حتى من أمه التي ولدته ! وطمأنها أبو بكر ، وعندئذ ـ وعندئذ فقط ـ أجابته انه صحيح معافى .

وخشى أبو بكر أن تكون قد كذبته القول رحمة به ، وأبى أن يطمئن قلبه حتى يرى بعيني رأسه ، فقالت له بنت الخطاب انه مختبىء فى دار الارقم بأطراف مكة ، فهم أن ينهض اليه متعجلا ، وبمشقة اقنعتاه بالبقاء الى الليل حتى يحفظ سرية مخبأ محمد . فانتظر ، ولكنه أبى أن يذوق شيئا حتى يرى محمدا ويطمئن عليه ، وعزز اباءه بيمين مغلظة . وما أرخى الليل سدوله حتى خرج يتوكأ من شدة ضعفه على المرأتين . وما أن دخل على محمد حتى أكب عليه يعانقه وهو يبكي فرحا .

وبعدئذ ـ وبعدئذ فقط ـ طابت نفسه أن يتبلغ بشىء يصلح به حاله ويقيم أوده . .

فهل يخطر بالتصور سلوك بلغ هذا المبلغ من التفانى ،

الا أن يكون مصدره جبا من طراز رفيع ، تزول الجبال الرواسي ولا يزول ، وتتحول النجوم عن مواقعها ولا يحول .. ؟

وآية ذلك انه لم يزد بعد تلك « القارعة » الا امعانا فى مسئولية الحوارى الامين ، أو « وزير الدعاية » للدين الجديد ...

فهذا ابن هشام يروى أن أقطاب المشركين فى قريش اجتمعوا فى الحجر ، ومعهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يروي هذه الواقعة بلسانه :

« فقال أشرافهم بعضهم لبعض :

ــ ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، فما بالكم اذا باداكم بما تكرهون تركتموه ؟

« فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، واحاطوا به يقولون :

ــ انت الذى تقول كذا وكذا .. ؟

« يعنــون ما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول النبي :

ــ نعم ! انا الذى اقول ذلك !

« ولقد رأيت رجلا منهم اخذ بمجمع ردائه ، فقـام ابو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول :

ــ اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

« ثم انصرفوا عنه ، فان ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط »

وعن أم كلثوم بنت أبى بكر ــ واخت عائشـــة انها قالت :

ــ رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه ... وكان رجلا كثير الشعر ! ..

وهل يبلغ حب أعظم من التفدية بالنفس والصد من الحبيب بجسمه الضعيف ، حتى ليفلقوا رأسه ، وما بين ذلك والموت سوى ان الله سلم ؟

ولكن حب أبى بكر لنبيه كان كفوًا لهذا التفانى وهذا الفداء .

ثم انظر اليه يبكى — على ندرة البكاء فى أهل البداوة — كلما رأى حبيبه يتعرض للايذاء : يطفر الى ذهنك تكوينه العاطفى الجياش ، ذلك التكوين الذى رأيناه فى جميع المواقف ينبىء من « عاطفة تملك صاحبها ولا يملكها اذا استثار براكينها شىء » فكأنها تحت الطلب فى كل وقت ، لا تحتجب عن الانظار الا بجهد جهيد ، ولكنه الاحتجاب الذى ليس بينه وبين السفور الا اشارة واحدة هو لها بالمرصاد !

و برهانٍ آخر...

ثم هذا الرجل ضعيف البنية ، قليل العشير، التاجر الذى تعتمد حياته المعاشية على علاقاته بالنـــاس ، والعمل على تأمين ماله ومعاملاته ، والبصر بالعواقب المادية فلا يبذل الدرهم الا حيث يتوقع أن يعود اليه درهمين ، أو على أقل القليل لا يضيع الدرهم عليه. فلا يكون فراقه اياه الى غير رجعة .

هذا الرجل ماذا كان يفعل بماله هـذا منذ أسـلم ايمانا بالدين الذى دعاه اليه الرجل الذى أحبه أعظم الحب ؟

فلننظر قليلا فيما رواه ابن هشام :

« ... ثم ان المشركين عدوا على من أسـلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم .

« وكان بلال بن رباح عبدا لبعض بنى جمح ، مولدا من مولديهم ، وكان اسم أمه حمامة ، وكان صـــادق الاسلام طاهر القلب . وكان أمية بن خلف بن وهب

ابن حذافة بن جمح يخرجه اذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له :

ــ لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى !

« فيقول وهو فى ذلك البلاء :

ــ أحد ! أحد !

(يعنى بذلك أن الله واحد ، وهيهات تكون اللات والعزى شركاء له فى الألوهية)

« وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك ويسمعه وهو يقول : أحد ! أحد ! فيقول ورقة :

ــ أحد أحد والله يا بلال !

« ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بنى جمح فيقول له :

ــ أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حنانا !

(أى لأجعلن قبره موضع حنان فأتمسح به متبركا كما يتمسح الناس بقبور الصالحين والشهداء !)

« حتى مر به أبو بكر ذات يوم ، وهم يصنعون به ذلك ، وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية بن خلف :

ــ الا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

« فقال أمية :

ــ أنت الذى أفسدته ، فانقذه مما ترى !

« فقال أبو بكر :

ــ أفعل ! عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، وهو على دينك ، أعطيكه به !

« فقال أمية بن خلف :

ــ قد قبلت !

« فقال أبو بكر :

ــ هو لك !

« فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالا فأعتقه ... »

وواضح أن بلالا كان دون ذلك العبد الوثنى فى كل مزايا العبيد ، فلا يجوز فى موازين التجارة الصحيحة أن يتعادلا فى الثمن أو عند المقايضة . ولكن أبا بكر التاجر ركل موازين التجارة والربح والخسارة فى سبيل استنقاذ بلال بن رباح من هذا العذاب الاليم .

والى هاهنا كان حسب أى تاجر أن يرى نفسه آب بالخسران ، وضحى ما وسع التاجر أن يضحى ، ولكن أبا بكر لم يكتف بهذا ، بل أخذه وأعتقه ! وهكذا ألقى برأس ماله فى البحر ، وهذه لا تصدر عن رجل بقيت له من خلائق التجارة ذرة !

لقد جرف « الحب العظيم » أقوى سجايا التاجر الذى ناهز الاربعين ، سلخها حسن التدبير للمال حاذقا فى البيع والشراء .

ولكن « الحب العظيم » لا يعرف البيع والشراء ، لانه لا يعترف الا بنشوة العطاء .. والفداء ..

ويقول ابن هشام على الاثر فى ذلك السياق :

« ثم أعتق أبو بكر على الاسلام قبل أن يهاجر الى المدينة ست رقاب بلال بن رباح سابعهم : ١ ــ عامر ابن فهيرة ــ ٢ ــ أم عبيس ــ ٣ ــ زنيرة ــ ٤ ــ النهدية ــ ٥ ــ ابنة النهدية ــ ٦ ــ جارية بنى نوفل وكان الذى يعذبها عمر بن الخطاب ! »

وبذلك اكتمل العدد سبع رقاب من ضعاف العبيد ، وهى تضحية ضخمة ينوء بها رصيد تاجر محدود المال باتت تجارته أقل رواجا ومعاملاته أضيق مجالا بعد أن خرج على دين قومه .

فلا عجب نقرأ فى اعقاب سرد ابن هشام لتفصيلات عتق هذه الرقاب ، حديثا أشبه بالعتاب أو التقريع من والد أبى بكر لابنه وهو يراه يبتعد من سنن التجارة السليمة وأصولها القويمة .

« وقال أبو قحافة لابنه أبى بكر :

ـ يا بنى ! انى أراك تعتق رقابا ضعافا . فلو أنك اذ فعلت ما فعلت اعتقت رجالا جلدا (أشداء) يمنعونك ويقومون دونك ؟ »

وهو حديث معقول جدا بمقاييس اب مشرك لم يزل على دين قريش ، طاعن فى السن ، يرى ابنه ـ وهم عشيرة قليلة العدد ـ مهددا فى نفسه وماله ، يتربص به أعداؤه ويعتدون عليه حتى انهم يشجون رأسه ، فيريد أن يكون له على الاقل بهذا المال الضائع فى الشراء والعتق نصراء أشداء من مواليه (أى عتقائه من عبيده السابقين) يقدرون على حمايتــه ودفع الاذى عنه فى تلك المحنة التى تحدق به ...

فماذا كان جواب التاجر ابن التاجر ؟

« ... قال ابو بكر لأبيه :

ـ يا أبت ! انى انما أريد ما أريد لوجــه الله عز وجل ! »

فلا عجب أن يروى ابن هشــام أن ما قاله له أبوه وما أجابه به هو المقصود بتلك الآيات من سورة الليل :

« فأما من أعطى واتقى ، وصــــــدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله اذا تردى ، ان علينا للهدى ، وان لنا للآخرة والاولى ، فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها آلا الاشقى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الاتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما

لاحد عنده من نعمة تجزى ، الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ، ولسوف يرضى »

ان « الحب العظيم » هو التفسير الوحيد لهذا الصنيع الذى يهلك به مال تاجر تحف به الأزمات والشدائد ، ولا يدرى ما يكون من أمره غدا ...

« الحب العظيم » وحده هو التفسير الذى يستقيم به سلوك تاجر حصيف انساه اندفاع العاطفة تدبير التاجر وحصافته . فجعل متجره نشوة القلب ورضوان الضمير لا ساحات الاسواق ، وحساب الخسائر والارباح ...

دورهان ثالث

ثم هذا الرجل الحصيف ، العارف بالاخبار، العليم بدخائل القبائل ، المتمرس بالناس ، التاجر الذى لا يعاملهم الا بحذر ، ولا يأخذهم بظاهر أقوالهم ، ولا يثق ثقة عمياء ، بل عن تبصر واستدبار للعواقب ، وقياس للغائب على الشاهد ، ما باله قد انقلبت أحواله فلا يكون معيار من هذه المعايير فى موازينه عندما نجم حديث ارتجت له الالباب ، وزاغت له البصائر ، وزلزل له ايمان قوم فارتكسوا ، واذا به وحده لا يتردد فى التصديق حيث كذبوا ، بل ينطلق فى تصديق ما كذبوا به منكرين وكأنه وحده يرى اليقين فيه رأى العيان ، حيث أيقنوا هم بالزور والبهتان ؟ !

ذلكم حديث الاسراء .

وان أمره مع أبى بكر لعجب !

يقول ابن هشام رواية عن محمد بن اسحق :

« ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، وهو بيت المقدس فى ايلياء (القدس) وقد فشا الاسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ... وكان من الحديث فيما بلغنى عن مسراه - وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من الله عز وجل فى قدرته وسلطانه ، وفيه عبرة لأولى الالباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه

وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد ...

« ... وعن بعض آل أبى بكر أن عائشة زوج النبى كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أسرى بروحه » ..

« وعن معاوية بن أبى سفيان ، كان اذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

— كانت رؤيا من الله صادقة !

« فلم ينكر ذلك من قولهما (قول عائشة ومعاوية) لقول الحسن أن هذه الآية نزلت فى ذلك ، وهى :

— وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس...

« والله أعلم على أى حاليه كان نائما أو يقظان قد جاءه ما جاءه ، وعاين فيه ما عاين من أمر الله ... »

ثم ماذا بعد هذا الاسراء العجيب ؟

يقول ابن هشام — برواية عن الحسن — انه قال :

« فلما أصبح (النبى) غدا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس :

— هذا والله الامر (بكسر الهمزة العجيب المنكر) البين ! ان العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة وشهرا مقبلة . أفيذهب ذلك كله محمد فى ليلة واحدة ويرجع الى مكة ؟ !

« فارتد كثير مما كان أسلم ، وذهب الناس الى أبى بكر ، فقالوا له :

— هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم انه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع الى مكة! »

ولم تكن فزعة شكاة تماما ، ولكنها بالاكثر هجمة احراج ! فهذا التاجر الرزين الوقور كم أحرجهم

باسراعه الى الايمان بما جاء به محمد من حديث الوحي، وكم أغرى ايمانه هذا ـ لوقاره وحصافته ـ غيره من رجالات قريش أن يدخلوا فيما دخل فيه من الدين الجديد ، وكم بشر ودعا جهرة ، حتى نقل الدين الجديد الى « ظاهرة اجتماعية » لا محالة فيما تحدثه من صدع فى بنيان قريش ، حتى « فشا الاسلام فى قريش وفى قوم من قبائل أخرى من قبائل العرب» فزاد ذلك من حرجهم

فاليوم اذن سنحت لهم السانحة الكبرى كى يشتفوا فى هذا الاسلام ، وكى يشمتوا أول مايشمتون فى حوارى محمد الأول وصاحبه الذى يذب عنه ويدعو اليه ويفتديه ويؤيده أشد التأييد .

اليوم آن لهم أن يقولوا :

ـ هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ أنظر الام وصل به الامر ، فقد أغراه تصديقك اياه أن يخرج على الناس هذه المرة بما لا محل للمماراة فى بطلانه الذى لا يقبله عقل ! فأنت التاجر العتيد ليس أحد أعرف منك بطريق الشام ، وكم قطعته جيئة وذهوبا ، وما أحد أدرى منك بطوله الذى يستغرق شهرا للذهاب ومثله للاياب ، وهذا صاحبك (وما أوضح التهكم والشماتة فى صاحبك تلك على لسانهم ؟) يزعم أنه ذهب الى هناك وعاد تحت جنح ليلة واحدة !

هى الدامغة اذن ليس مثلها فى حسبانهم دامغة !

وكان أول ما تبادر الى ذهن أبى بكر :

ـ أنتم تكذبون عليه !

فلكم افتروا عليه من قبل ، ولكم جرب عليهم الادعاء بالباطل على « صاحبه » . ولكنهم قالوا :

ـ بلى ! ها هو فى المسجد يحدث الناس بذلك !

فماذا كان من أبى بكر الحصيف الاريب الفارق بالناس

والديار والدروب ، ومجرب الحياة الوقور الاريب ؟

لقـــد وفى الحذر حقه حين امتحن قبـــل كل شيء صدقهم وجدهم فيما نقلوا اليه ، لأنه لم يكن للـكذب فى نفسه الا افتراض واحد : أن يكونوا هم كاذبين فيما ادعوا أن « صاحبه » قاله . أما الطرف الآخر . أما صاحبه . فليس فى نفسه مجرد افتراض كذبه بصرف النظر عن « جسامة » الامر الذى يحدث الناس به .

أما وقد وفى الحذر فى نفسه حقه . ووفى تمحيص الـكذب من جانبهم حقه ـ وليس يمكن عنده الا أن يكون الـكذب من جانبهم ـ فلم يبق لديه الا رأى واحد يبديه من فوره ، لأنه ليس له فى نفسه بديل . قال :

ـ والله لئن كان قاله لقد صـــدق ! فما يعجبكم (يدهشكم) من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الارض فى ساعة من ليل او نهار فأصدقه . فهذا أعجب مما تعجبون منه !

ـ والله لئن كان قاله لقد صدق !

قالها مناقضا كل معلوماته عن مضمون ما يقول : مناقضا كل معلوماته عن المسافة وعن الوسائل وعن المدة

فعلى قياس العقل : كل قضية اما صادقة أو كاذبة لذاتها بصرف النظر عن قائلها .

وأبو بكر ـ فى نظر الناس وتجربتهم ـ ذلك العاقل أشد العقل . الفطن أشد الفطنة . اللبيب الذى لاتدخل عليه غفلة ولا تجوز عليه خدعة .

وبهذا الحساب كان ينبغى أن يكون أشد المكذبين ، فاذا به أشد المصدقين . ومن غير القاء نظرة واحـــدة على « مضمون » القضية التى يتحدث بها محمد . أو

من غير مراجعة لمقاييس العقل الحسابى الذى يقيس الغائب على الشاهد . ولا يسلم بأمر خارج على مألوف العادة فى التجربة .

ولكن الشك لم يداخل أبا بكر لحظة واحدة . وهذا العقل الحسابى لم يكن فى حسبانه حين قالها بغير تردد بعد أن رأى انه استوفى حق هذا العقل كل الاستيفاء بالشك فى صدق زعمهم .

أما وقد صار الامر الآن متعلقا بمحمد وحده ، فليس للشك فى المسألة مكان ، وليس فيها قولان . وانما هو حكم لا يحتمل عنده نقضا ولا حاجة معه الى برهان :

ـ والله لئن كان قاله لقد صدق !

قالها وهى بالنسبة لنفسه كافية . أما بالنسبة لهم فلا بد لها من تبرير . ومن هنا أردف :

ـ فما يدهشكم من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء الى الارض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . فهذا أعجب وأبعد مما تعجبون منه !

وهو تبرير من الواضح انه يؤسس تصديقا على تصديق ! ذلك أنه ـ حين يتعلق الامر بمحمد وحده ـ فلا محل عنده لغير التصديق، أما الشك فلسواه من الناس

برهان جدلى مفحم . قائم على مقدمة ليس لها قدرها وقيمتها الا عند المؤمن الذى انتهى من التسليم بصدق صاحب الدعوة ولم يعد ذلك محل مراجعة . وأبو بكر كان أول المصدقين به .

ولكن كثيرين غيره من المصدقين ارتدوا عن الاسلام بسبب حديث الاسراء هذا ، وكأنهم خجلوا من تصديقه فما خبرهم ؟ ولماذا لم يكن حالهم وبرهانهم أمام أنفسهم كبرهان أبى بكر ؟

ذلك ان اسلامهم لم «يستقطب» نفسيتهم ووجدانهم وتفكيرهم ، بل ظل الى جانب تصديقهم دور فعال للعقل

الحسابى أو الواقعي الحسي . فحين تعلق الامر بواقع حسي ـ هو المسافة والمدة ـ رفض عقلهم القضية . لأن ذلك العقل لا يعرف الا قاعدة ابتناء صدق القضية أو كذبها على النظر فى مضمونها ، وليس على النظر الى قائلها . وتأسيسا على النظر فى المضمون يحكم على القائل بأنه صادق أو كاذب .

فالعقل الواقعي الحسي اذن لم تزل له عندهم السيادة رغم اسلامهم وتصديقهم بالدعوة حتى ذلك الحين . مما يدل على أن هذا التصديق كان لمضمون ما تدعو اليه بالاكثر . أما أبو بكر فشأنه غير هذا الشأن . شتان !

وتفكيره من نوع آخر بعد ذلك « الاستقطاب » الذى صنعه به حب محمد حين رآه جديرا بتصديقه وايمانه. انه تفكير « يقلب الاوضاع » السابقة السائدة عند سائر الناس فى احتكامهم الى العقل الواقعى الحسى . فهذا العقل يجعل كل قائل موضع امتحان ، يعرض مضمون قضيته على معاييره المرتكزة على معطيات الواقع الحسى وتجربته المألوفة .

اما تفكير أبى بكر ـ بعد ذلك الانقلاب أو الاستقطاب الناجم عن حبه لمحمد فايمانه به ـ فيجعل هذا القائل المبدأ والاساس ، وليس الواقف فى قفص الاتهام انتظارا للحكم له أو عليه . وتصبح الاشياء عند أبى بكر محكوما عليها بالصدق أو الكذب بمقتضى مطابقتها أو مخالفتها لما يقول محمد .

فما يقول محمد مقامه عند أبى بكر كمقام « المبادىء المسلم بها » عند الرياضى ، فهى التى يقيم عليها كل بنائه المنطقي بعد ذلك . وكل جزئية فى هذا البناء انما تكون صادقة أو كاذبة بمقدار مطابقتها أو مخالفتها

لهذه « المبادىء المسلمة » .

فالقائل في هـــذه الحالة ، وباعتبـــار ذاته هو ، وبخصوصية يتفرد بها هو ، انما هو المبدأ والاساس ومعيار الصدق والـكذب . وعلى ســائر الاقضية أن تطابقه وتوافقه كي تكون صادقة ، والا فالبطلان يلزمها ولا يلزمه ، والخسران عليها لا عليه !

فالعقل الواقعي الحسي هنا لم يعد السلطة العليا ، بل هو قد بات خاضعا كل الخضوع لسلطة أعلى منه .

وتلك هي ســلطة الايمان بمحمد ايمانا « مستقطبا » منشئا لحالة فذة قلبت كل أساس للتفكير والقياس عند رجل لم يعرفه قومه من قبل بشيء كما عرفوه بالفطنة والحصافة والاحتكام الى العقل الحسي الواقعي .

وذلك الانقلاب المنشيء لذلك الاستقطاب لايمكن أن تحدثه عند مثله الا قوة خارقة أعلى من كل ما هو معهود في العقل العملي الحسي .

هذه القوة لا يمكن أن تكون غير الحب الفذ المتسامي بأفقه فوق كل قوى الحس .

هو تصديق من نوع خاص اذن . قائم على حب من نوع خاص . لهذا ارتد الاكثرون بذلك السبب نفسه الذي زاد به وتجلي تصديق أبي بكر ...

لأن العقل الحسي عندهم هو المبدأ الاقصى انكروا وكذبوا بغير تردد .

ولأن الايمان المطلق عنده هو المبدأ الذي يخضع له كل شيء . وينسخ كل مبدأ مثلما ينسخ الابصار تلمس الاعمي، زاده ذلك الداعي بعينه الى انكارهم يقينا وتصديقا

معجزة ما حدث في نفس أبي بكر من انقلاب لايمكن أن يحققها الا الحب الفذ في سموه المطلق في سلطانه .

فلا عجب يومئذ سماه محمد « الصديق » ...

وبرهان رابع

وفيما تلا حديث الاسراء آية اخرى على ذلك الحب الفذ ، أو ذلك « الاستقطاب » الذى لا ينشأ الا منه . آية رابعة تتلوها آيات ... فمن شأن من صار هـذا حاله الا يصدر فى فعل من أفعاله الا عن هـذا المنبع الجديد الذي استوعب كيانه كله .

وذلكم حديث الهجرة ...

يقول ابن اسحق :

« وكان أبو بكر رجلا ذا مال . فكان حين استأذن النبى فى الهجرة ، فقال له النبى :

ــ لا تعجل ! لعل الله يجعل لك صاحبا ...

« قد طمع بأن يكون النبى انما يعنى نفسه حين قال له ذلك . فابتاع راحلتين فاحتبسهما فى داره يعلفهما اعدادا لذلك » .

ثم يردف ابن اسحق أيضا :

« ... وعن عائشـة أم المؤمنين انها قالت : كان لا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار . اما بكرة واما عشية . حتى اذا كان ذلك اليوم الذى أذن فيه له فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه أتانا صلى الله عليه وسلم بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها . فلما رآه أبو بكر

قال :

ـ ما جاء رسول الله هذه الساعة الا لامر حدث !

« فلما دخل تأخر له ابو بكر عن سريره فجلس . وليس عند أبى بكر الا انا واختى اسماء . فقال له :

ـ اخرج عنى من عندك !

« فقال أبو بكر :

ـ يا رسول الله انما هما ابنتاى . وما ذاك ؟ فداك ابى وأمى !

« فقال :

ـ ان الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

« فقال أبو بكر :

ـ الصحبة يا رسول الله !

« قال النبى :

ـ الصحبة !

« فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم ان احدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ! »

وعند هذه الدموع التى ادهشت ابنة أبى بكر يذرفها رجل ثابت الجنان نتمهل قليلا ...

آآية طبع جياش شديد الحرارة هى ، تحت سطح هذا الوقار والاتزان ؟

أجل ، ولا مراء !

ولكن هذا ليس قصارى امرها :

فقد يكون الرجل جياش الطبع ولا يبكى فرحا فى كل مناسبة يهزه فيها السرور .

بل وأكثر من هذا : ما كل رجل جياش الطبع حرى ان يرى فى هذا الذى جاءه فيه محمد داعيا للسرور ، فضلا عن السرور الدافق الذى يفجر الدمع من المآقى!

فالذى آذنه به محمد انما هو المخاطرة بالحياة على

الارجح ، وهو بالقطع فراق الاهل والولد وما كان بقى لهمن أسباب الدعة والاستقرار . انه النفى الاختيارى الذى لا تؤمن معه الغوائل على التجارة وموارد الرزق كلها . ولا تؤمن معه غوائل قريش على بنتيه وأبيه الشيخ الاعمى وأمه . وانما هو الشظف والقلق .

انما هى المحنة من كل وجه أتاه محمد يدعوه اليها . فما كان أحراه أن يفرق أو يتوجس ! وعلى أقل القليل ما كان أحراه الا يستطيره السرور بهذه القوارع الجسام !

ولكن السرور استطار أبا بكر حتى بكى فرحا !

وما عسى يكون منبع هذا الفرح الطافى الذى يجرف دواعى القلق والحزن والتوجس والجزع حتى تنعدم وتتلاشى من جوانحه وهو الحصيف الاريب الذى يستبصر عواقب الامور ويحسب لكل شىء حسابه ، باحساس مجرب الحياة وفطنة التاجر ؟

انه ولا شك منبع من مستوى اعلى بكثيرمن كل هذه الاحاسيس و « الحسابات » . وهى حسابات لا يكفى لابطالها الايمان العادى . فقد يكون الرجل مؤمنا ثم يأخذه الخوف على حياته أو ماله وولده .

انه ايمان من نوع خاص : ايمان المحب الذى استقطب حبه لمحمد كل كيانه ، وكل احساسه ، وكل تفكيره ، فحيث « صحبة » محمد يكون اقتحام الاهوال التى لا تتوقف دون الموت احب الى نفس هذا المحب من كل طيبات الامن والدعة وطمأنينة البال على النفس والاهل . وأحب الى نفسه مئات الاضعاف ، حتى لا يكتفى فى فرحه بأقل من الدمع المدرار !

ثم ماذا كان من أمره بعد ذلك ؟

ألعلها كانت دموع فرح من وحى اللحظة ، حتى اذا

ذهبت حدتها وراجع فكره ارعوى أو استأنى او كف من غربه ؟

يقول ابن اسحق :

« فلما اجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج اتى أبا بكر بن أبى قحافة مخرجا من خوخة لابى بكر فى ظهر بيته . ثم عمدا الى غار بثور (جبل بأسفل مكة) فدخلاه ... »

ويقول ابن هشام :

« وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال :

ــ انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الى الغار ليلا . فدخل ابو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع او حية ، يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه !»

وهى حادثة ناطقة بذاتها : ان هذا فعل المحب الذى يقدس حبيبه حتى ليفتديه بنفسه فى غير تردد . وهو ما لا يشبهه صنيع الا صنيع أم مفرطة الامومة بوليدها تدفعها الغريزة ــ بغير تفكير أو تدبر ــ فى لحظة الروع أن تلقي بنفسها على مصدر التهلكة لتكون وقاء له أن كان ثمة وقاء . أو فداء له ان لم يكن فى الامر حيلة دون الفداء .

صنيع لا يصدر الا عن أسمى مشاعر الحب والولاء

وبرهان خامس

ولكن أكان ذلك الصنيع قصارى حب أبى بكر لمحمد ، وهو حب لا يقارن الا بحب الابوة أو الامومة المسرف فى البذل والعطاء والفداء ؟

كلا !

فثمة دليل على ان حب أبى بكر لمحمد ها هنا كان فوق حب الابوة التى فطرها الله غريزة فى قلوب احنى الامهات والآباء !

ولا عجب ! فقد انطمس حب الابوة ذاته فى نور هذا الحب الفذ ، فى موقف الهجرة هذا ، حتى لم يكد يبقى له أثر ، من غير مقتض يوجب ذلك بفرض أو تكليف ، الا تكليف عاطفة حبه الفذ لمحمد . تلك العاطفة التى تستوعب كل شىء ولا تترك لحب الابناء والحرص عليهم اعتبارا فى هذا الطوفان العاطفى الجارف .

كان حسبه وزيادة أن يخاطر بنفسه مستطار القلب فرحا بصحبة محمد ، وأن يقيه بنفسه ما عسى أن يكون كامنا تحت جنح الليل فى غار ثور من سبع أو حية ، وما كان عليه جناح بعد هذا الولاء العميم أن يوفى بنتيه وأهله حقهم من الحياطة والرعاية ، وهو تاركهم بين ظهرى عدو مبين شرس ، فحسبه تركه اياهم بلا نصير ، وما أحراه أن يعوضهم من ذلك بعض الشىء بما يطمئنه

على معاشهم وهو الرجل « ذو المال الكثير » كما قال عنه ابن اسحق ، فيكون ذلك أضعف الايمان فى محنتهم ووحدتهم .

ولكن معاذ حب محمد !

حيث يتعلق الامر بمحمد فلا وجود عند ابى بكر لشيء ولا لشخص خلا محمد ، ولو على سبيل التزيد الذى لا تدعو الحاجة الملحة اليه .

يقول ابن اسحق :

«... عن أسماء بنت ابى بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج ابو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم ، أو ستة آلاف ، فانطلق بها كلها معه ! فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال :

– والله انى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه !
« فقلت له :

– كلا يا أبت ! انه قد ترك لنا خيرا كثيرا

« وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت :

– يا أبت ! ضع يدك على هذا المال !
« فوضع يده عليه ، فقال :

– لابأس ! اذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ (كفاية) لكم ...

« ولا والله ما ترك لنا شيئا ، ولكننى أردت أن أسكن الشيخ بذلك ... »

أجل ، كان فى وســـع أبى بكر أن يترك نصف ماله لأهله ، وعليهم ـ وهو يعلم هـــذا حتما ـ ستنصب ثائرة قريش ولا مراء بعد افلاته مع صاحبه الى المدينة. ولـكنه لم يفعل !

وكان فى وسع أبى بكر أن يترك لهم ربع هذا المال . أوخمسة ، ويكون مع هذا قد آثر حبيبه الفذ بأكثر مما يطالب به المؤمن شديد الولاء، المجزل البذل والعطاء والفداء

لـكن ابا بكر لم يفعل شيئا من هذا ، وحرمهم ماله كله ، وآثر أن يحمله ليكون تحت تصرف دعوة محمد فى هجرته التى يعلم أن مصيرها محفوف بالمجهولات .

حب محمد ، ومصلحة محمد ، والاحتياط لمحمد ، ذلكم عند أبى بكر كان أعتى آلاف المرات من حبـــه لأهله ـ وفيهم فتاتان صغيرتان ! ـ ومن مصلحتهم والاحتيـــاط لهم فى محنـــتهم التى تركهم يواجهونها وحدهم . فما لشىء من هذا كله على جسامته وجود ـ عند رجل شديد الشعور بالمسئولية ـ الى جانب ذلك الحب الآخر ، الحب الاقوى والاسمى والاعظم لصاحبه ونبيه الذى آمن به وناصره مناصرة المحب المتفانى ، فاستولى هذا الحب على نفسه كلها ولم يدع له فى شىء مصرفا ، مهما كانت دواعى التفكير والتـدبير ، ومهما كانت دوافع الحنان !

وليس أقل من « الحب » بمعناه الاســمى يصلح تفسيرا لهذا التصرف بالذات ، فى تلك الظروف بالذات.

ولعل تمام الصورة ، صورة الحب الذى لا يعرف حدا يقف عنده فى العطاء والفداء ، فى رواية ابن اسحق ـ بأسناده ـ عن بعض أصحاب النبى فى صـدد هيئة وصوله مع صاحبه الى يثرب :

« لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكفنا (توقعنا) قدومه ، كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة (فى شهر ربيع الاول) حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله جلسنا كما كنا نجلس ، حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، فصرخ بأعلى صوته :

ـ هذا جدكم جاء !

« فخرجنا الى رسول الله ، وهو جالس فى ظل نخلة، ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، واكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك ، وركبه الناس (ازدحموا عليه) وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك .. ! »

فعل أبو بكر هذا : أظله بردائه .

وكانت له عن ذلك مندوحة ، فنحن نعلم أن أبا بكر عندما ركب مع النبى من غار ثور يريدان المدينة ـ على حد رواية ابن اسحق :

« فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق.. »

وكان فى وسع أبى بكر أن يترك لخادمه هذا تظليل النبى وتظليله أيضا فى تلك الهاجرة التى لايطاق فيها الوقوف فى العراء بلا ظل ، فيلوذ الناس ـ على شدة شوقهم الى النبى ! ـ بالبيوت ..

ولـكن معاذ « الحب العظيم » !

بنفسه أظله بردائه ، متعرضا للشمس المحرقة بعد ذلك السفر الطويل المنهك ، بغير موجب .

أبغير موجب حقا ؟

وهل من موجب أقوى من الهاجرة المحرقة ، مثلما كان أقوى من حب الاهل والولد ... اللهم الا موجب الحب الجارف ، ذلك الحب الذى يتلهف على فرصـة للتلذذ بالبذل بالغا ما بلغ ، والسرور بالمشقة بالغة ما بلغت ، خدمة للمحبوب الفذ ؟ ..

ذلك منطق لا يستقيم ولا يفهم الا فى ضوء الحب ، وفى ضوء الحب وحده .

وهى خليقة نادرة غاية الندرة بين خلائق بنى الانسان

وفى المدينة ..

وفى المدينة صار الاسلام « دولة دعوة » لاول مرة ، بعد أن عمـل أبو بكر فى مكة على اضفاء « الظـاهرة الاجتماعية » عليه ، بما أشرنا اليه من سلوكه ، فكان بذلك أول « وزير للدعاية » فى الاسلام .

فماذا كان دور أبى بكر فى « الدولة » الجديدة ؟

هو بعينه دوره السابق فى مكة ، مع تحوير يقتضيه تغير الظروف والاوضاع و « مراكز القوة » .

فها هنا ليس موقفه موقف المكافح عن قلة ضـد كثرة ساحقة باغية طاغية ، بل موقف المنافح ضـد « جانب » من سكان المدينة وأرباضـها يخالفون دعوة الدولة الجديدة ويصدون عنها .

. ها هنا فى المدينة صار أبو بكر كبير دعاة الاسـلام ورأس المنافحين عن النبى تجاه اليهود من سكان يثرب ، يتصدى لهم ولا ينهنه عن التصدى .

وأول ذلك التصدى ما رواه ابن اسحق :

« دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس (وهو البيت يتدارس فيه اليهود كتابهم) على يهود ، فوجد منهم ناسا كثيرا ... قد إجتمعوا الى رجل منهم يقال له « فنحاص » وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر من أحبارهم يقال له أشيع .. »

ابو بكر اذن هو الذى دخل على اليهود مكان دراستهم الدينية ... فلماذا دخل ؟ أهى زيارة تحية ومجاملة ؟ سترى !

« ... فقال أبو بكر لفنحاص :

ـ ويحك يا فنحاص ! اتق الله واسلم ! ..

« فقال فنحاص لأبى بكر :

ـ والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر ، وانه الينا لفقير ! وما نتضرع اليه كما يتضرع الينا ! وانا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ! ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .. !

« فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال له :

ـ والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت راسك أى عدو الله ! »

وما بأوضح من هذا يكون التصدى والتحدى : يدخل على اليهود عقر دارهم وهم فيها جمع كبير فيدعو أحبارهم الى الاسلام ! وحين سمع رداً قبيحا فى حق الله لم يملك نفسه من الغضب وهو فرد وسط جماعتهم الكبيرة « فضرب وجه فنحاص ضربا شديداً » وتهدده بضرب عنقه لولا العهد .. !

غضب شديد لا يقيم وزنا للمخاطر ، وهذا شأن النفس الجياشة التى ان مس شيء موضوع عاطفتها الكبرى لم تقم وزنا لشيء ، وكأنما مس ذلك لغما شديد التفجر !

غضب نزل فيه قرآن ليحد من غربه :

ـ « .. ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان

ذلك من عزم الامور .

غضب ينسى كل شيء ، حتى ليفوته «عزم الامور» وهو اللبيب الحصيف الاريب الوقور

وهـذا نمط من سيرته فى صحبة النبى ، وزيرا ومؤازرا وصاحبا ومشيرا ونصيرا ، نمط حماسة لا تخمد ، وهمة لا تفتر ، وحب ليس له حد ، وغيرة كلها اقدام ...

ثم كان يوم بدر ...

أول معركة للمسلمين ، واول نصر .

يوم رهيب له ما بعده ، كيوم الهجرة ، وله خطره ومخاطره التى تتجدد بها مخاطر « غار ثور » .

وأبو بكر كان فى الهجرة وفى الغار « ثانى اثنين » .

وما كذلك ـ بظاهر الاحداث ـ كان يوم بدر ! فهو يوم لقاء أجناد بأجناد ، وهؤلاء وأولاء فى العدد والعدة ، فما أبعده عن موقف كان فيه أبو بكر « ثانى اثنين » .

ولكن مواطن القتال ـ ككل مواطن النضال ـ طبقات فى الدقة والشدة ، وحيثما يكون وقع المحنة شديدا على قلب مثقل بالاعباء ، فثمة داخل محيط النصراء والاعداء ـ على اتساعه ـ مواقف تشعر فيها النفس بالوحدة ، أو هى أقرب ما تكون الى الوحدة فى التدبر والتصرف .

وبدر كانت أول مواقع الاسلام الحربية ، على قلة فى عدد المسلمين وكثرة فى عدد القرشيين المشركين ، فما أحراه أن يكون يوم امتحان عسير على وجدان محمد .

وننظر فيما كان من أمر محمد فى ذلك اليوم ـ برواية ابن اسحق ـ فنرى مصداق ما قلناه ، ونلمس أيضا مكان أبى بكر من نبيه وحبيبه :

« نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم (كما أشار عليه الحباب بن المنذر بن الجموح) نزل عليه ، ثم أمر بالقلب (العيون) فغورت (سدت) وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه فملىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية (للشرب) ... وقال سعيد بن معاذ الانصارى :

ـ يا نبى الله ! الا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فان أعزنا الله واظهرنا على عدوه كان ذلك ما أحببنـــا ، وان كانت الاخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ؟ ..

« فأثنى عليه النبى خيرا ، ثم بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه »

ولـكن ... أكان محمد فى ذلك العريش وحده ؟
يقول ابن اسحق :

« ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال لهم :

ـ ان اكتنفكم القوم فانضحوهم (ارموهم) عنكم بالنبل !

« ورســول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش ، معه فيه أبو بكر الصديق ! »

ثانى اثنين دائما ، كلما تزاحمت المحن على محمد .
ويستأنف ابن اسحق الرواية عن يوم بدر :

« ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ، ورجع الى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق،

ليس معه فيه غيره .. !

« ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشـد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول :

ــ اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد !

« وابو بكر يقول :

ــ يانبى الله ! بعض مناشدتك ربك ، فانه منجز لك ما وعدك ! »

ها هو موقف غار ثور يتكرر :

ثانى اثنين ، الله ثالثهما !

فقلب محمد معلق بمناجاة ربه أن يؤتيه وأصحابه السبعين النصر فى ذلك اللقاء الحاسم ، وهو مدرك خطر هذا اليوم على مستقبل الدعوة كله .

وقلب أبى بكر يأخذه الاشفاق على صاحبه قبل كل شيء . وانه لفرط ايمانه بصدق نبوته لا يجد فى نفسه من نصر الله ريبا ، فيذكره أن وعد الله حق وان نصره آت لاريب فيه .

اهى عبقرية الايمان ؟

نعم ولا مراء !

ولـكنها أيضا شيء فوق عبقرية الإيمان ...

انها عبقرية الحب تشغل قلب أبى بكر على النبى ولا يرى احتمال الهزيمة ، لأن محمدا فى نظره أعز على ربه من أن يكون هناك ريب فى نصره اياه ، مهما قل عدد أصحابه ، ومهما كثر عدد أعدائه ...

قضية مفروغ منها عنده ، لا تحتاج الى مناقشة أو برهان ، بل تنهض برهانا على كل ما يوافقها وتدحض بذاتها ما يخالفها ...

ولعل الاحساس بهذا الحب هو الذى استحق عند محمد مكافأة واضحة فى رقتها ، ففى رواية ابن اسحق :

«. وقد خفق (نام نوما يسيرا) رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى العريش ثم انتبه وقال :

ـ ابشر يا أبا بكر ! أتاك نصر الله ! »

لم يقل « أتانا » بل قال « أتاك » ، وكأنما أحس أن الفرح بنصر الله سيغمر أبا بكر أكثر مما يغمر سائر النـاس ، بما فى قلبه من احسـاس متفرد نحو نبيه وحبيبه ، فله صدى ذو وقع خاص لما فى قلبه من هذه الخصوصية ، خصوصية « الحب الفذ » .

وشيجة حب ليس كمثلها وشيجة . بها استحق أبو بكر أن يكون ثانى اثنين ، وأن يخص قبل سـائر المسلمين بفرحة النصر وبشراه .

ولـكن هل كان هذا كل شأن أبى بكر يوم بدر ؟
للقصة جانب آخر من جوانب العلائق الانسانية :

كان فى جيش قريش يوم بدر ابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ، وكان شجاعا بارعا فى قتال السيف ، ومن أمهر الرماة .

وبرز عبد الرحمن بن أبى بكر يطلب مبارزا ، فمـا تأخر أبو بكر وما تردد ، ووثب يجيب مناجزة ابنه ، ولـكن محمدا تلطف فى رده عن ذلك ، نافذا اليه من أشد المنافذ حساسية عند أبى بكر ، قال له : « متعنى بنفسك ! » ، معبرا بذلك عن ائتناسه به فى وحدته بالعريش ، فقعد أبو بكر ، لأن واجبه نحو محمد لاينهض به فى ذلك الموطن سواه ، أما واجب القتال فينهض به عنه أى مسلم ممن شهدوا بدرا .

وفيما بعد أسلم عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقال يوم أسلم لأبيه انه كان هدفا واضحا لسهامه يوم بدر ، ولـكنه انصرف عنه برا بأبوته ولم يقتله .

فما تظن أبا بكر أجابه ؟

قال له بغير تردد انه لو كان على مرمى سهامه يومئذ لما عدل عنه !

ومرة أخرى تبرز عقيدته التى استولت عليه ، فصارت أساس سلوكه كله ومصدر كل قيمة عنده . فاذا نصرة محمد مقدمة عند أبى بكر على كل شىء ، وعلى كل انسان ، حتى الاهل والولد . فلو تمكن من رمى ابنه عبد الرحمن لما تعامى عنه ، ولما تردد ! ويجاهر ابنه بهذا وهو الابن الذى كان على مرمى قوسه فتحاماه !

أعن قلة حنان فى أبى بكر ، وقلة رقة للولد ؟

لنستمع الى ابن هشام :

« حدثنى الزبيرى أن رجلا دخل على أبى بكر الصديق وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبلها . فقال له الرجل :

ــ من هذه ؟

« فقال أبو بكر :

ــ هذه بنت رجل خير منى : سعد بن الربيع ، كان من النقباء يوم العقبة وشهد بدرا واستشهد يوم أحد » .

وهذا هو أبو بكر فى حنانه على حقيقته وفى رقته وجيشان عاطفته ، لا يكتفى فى الاعراب عن حنانه بأقل من « الرشف والتقبيل » وهو يحمل الطفلة اليتيمة على صدره .

أفمثله من يتهم اذن ببرود العاطفة وقلة الحنان وجفاء البنين من صلبه ؟

هيهات !

ولكنه « الميزان الجديد » جعل فوق عاطفة جزئية عاطفة كبرى ، فاذا العاطفة الجزئية « أضيع من السراج

فى الشمس » ، واذا بالعاطفة الكبرى تجرف فى طريقها كل اعتبار لأيما شىء ، وأيما شخص ، حتى البنات والبنين !

وهكذا نسى هذا الأب ـ على فرط حنانه الطبيعى ـ بنتيه وما تحتاجان اليه حين احتمل ماله كله ليجعله فى خدمة محمد ورهن مشيئته .

وهكذا أيضا نسى هذا الأب ـ على فرط حنانه الطبيعى ـ عاطفة الابوة ازاء ابنه عبد الرحمن ، فلم يذكر سوى أن عبد الرحمن يقاتل محمدا ، فى صفوف أعداء محمد ...

وبفيض من العاطفة ـ بمعناها الجديد الطاغى ـ صارح ابنه انه ما كان ليتحاشى قتله يوم بدر . وقالها صادقا ، لأنه أقوى عاطفة ، لا لأنه مهزول الوجدان .

ولكنها عاطفة ينفرد بها ، عن تفرد بينبوعها ، ومن هنا كان تفرده فى ثمارها ومظاهرها .

***

وبهذه العاطفة المتقدة لزم أبو بكر محمدا ، فلم يتركه بعد بدر فى غزوة كبيرة أو صغيرة ، ولم يترك مجلسه وزيرا ومشيرا ، ولم يغب عن جانبه فى أى موطن من مواطن السياسة أو الحكم الداخلى أو قتال الاعداء .

لقد تحول وزير الدعاية فى مكة الى وزير الدولة فى المدينة .

كان دائما ثانى اثنين فى مواطن الشدة الحاسمة ، وكان الاول دائما بين القلة النادرة من جلة الصحابة حينما يتسع نطاق الموقف والمشورة .

وكذلك ظل الى ختام حياة محمد فى سياق واحد مطرد . ولكن موقفين اثنين من ذلك التاريخ الطويل

انحطير يلفتان النظر فى تلك الصحبة بالمدينة .
أولهما محنة الافك .
وثانيهما يوم الحديبية .
ولـكل منهما حديث قائم برأسه .

محنة الإفك *

قلما مرت بحياة رجـل محنة مثل محنة الافك ، يكون فيها موزعا توزيعا بالغ القسوة بين حبـه الفذ لصاحبه ونبيه الذى يفديه بالنفس والنفيس ، وبين حبه لا لابنته فحسب ، بل ولما هو اغلى عند العربى الـكريم من الحياة والاهل : الا وهو العرض المصون والسمعة الطيبة .

محنة نفذت الى أعمق أعماق هذا الرجل الحساس المتقد العاطفة ، لتنال من أعز ما يحرص عليه بينه وبين نفسه ، وبينه وبين النـاس ، وهو الوقور العـارف بمثالب العرب ، فاذا به عرضة بين يوم وليلة لمثلب ليس كمثله مثلب !

وما حديث الافك ؟

يقول ابن اسحق بسند مرفوع الى عائشة :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع (أجرى القرعة) بين نسائه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فخرج سهمى عليهن معه ، فخرج بى . وكان النسـاء اذ ذاك لم يهجن اللحم فيثقلن . وكنت اذا رحل لى بعيرى جلست فى هودجى، ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملوننى فيأخذون

بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير ، فيشدونه بالحبال ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك توجه قافلا ، حتى اذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا ، فبات به بعض الليل ، ثم أذن فى الناس بالرحيل، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى .. وفى عنقى عقد لى فيه جزع ظفار « خرز يمنى » . فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري ، فلما رجعت الى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت الى مكانى الذى ذهبت اليه فالتمسته حتى وجدته . وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير وقد فرغوا من رحلته ، فأخذوا الهودج ، وهم يظنون انى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكوا انى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به.... فرجعت الى العسكر وما فيه داع ولا مجيب وقد انطلق الناس. فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت انى لو قد افتقدت لرجع الى فوالله انى لمضطجعة اذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى ، وقد كان تخلف عن العسكر يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي وأقبل على حتى وقف على ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فلما رآنى قال وأنا ملتفة فى ثيابى :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما خلفك يرحمك الله ؟

« فما كلمته ! ثم قرب البعير فقال : اركبى ! .. واستأخر عني فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس، فوالله ما ادركنا الناس وما افتقدت

حتى أصبحت ونزل الناس . فلما اطمأنوا فى منزلهم ذاك طلع الرجل يقود بى ، فقال أهل الافك ما قالوا ، وارتج العسكر ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك ! ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغنى من ذلك شيء . وانتهى الامر الى رسول الله والى أبوى ، لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيرا ، الا انى قد انكرت من رسول الله بعض لطفه بى : كنت اذا اشتكيت رحمنى ولطف بى ، فلم يفعل ذلك فى شكواى تلك ، فأنكرت ذلك منه ، حتى وجدت نفسى فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لى :

ــ يا رسول الله ! لو أذنت لى فانتقلت الى أمى (أم رومان) فمرضتنى ؟

« فقال : لا عليك ! .. فانتقلت الى أمى ، ولا علم لى بشيء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ... فخرجت ليلة لبعض حاجتى ... ومعى أم مسطح بنت أبى وهم (خالة أبى بكر) فوالله انها لتمشى معى اذ عثرت فى مرطها (كسائها) فقالت (تدعو على ابنها) : تعس مسطح ! .. فقلت لها : بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا ! فقالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟.. قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتنى بالذى خاض فيه أهل الافك من أمرى وأمر صفوان . فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى ، وقلت لأمى :

ــ يغفر الله لك : تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى شيئا من ذلك ؟

« فقالت : أي بنية ! خفضي (هونى) عليك الشأن ! فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عن رجل يحبها لها

ضرائر الا كثرن وكثر الناس عليها !

« ... ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى . وعندى امرأة من الانصار ، وانا أبكى وهى تبكى معى ... فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ يا عائشة ! انه قد كان ما قد بلغك من قول الناس . فاتقى الله . وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة عن عباده » .

وفى رواية البخارى عن عائشة :

« ... فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى (جف) حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى :

ـ أجب رسول الله عنى فيما قال !

« فقال أبى :

ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله !

« فقلت لأمى :

ـ أجيبى رسول الله فيما قال !

« فقالت أمى :

ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ! »

وفى رواية ابن اسحق عن عائشة أنها :

« قالت : ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم مادخل على آل أبى بكر فى تلك الايام !.. فلما ان استعجما « صمتا » استعبرت فبكيت ، ثم قلت :

ـ والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا ! والله انى لأعلم لئن أقررت ما يقول النـاس والله يعلم أنى منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن . وان أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى .. ولكن سأقول كما قال أبو يوسف ـ

وقد التمست اسم يعقوب فما أذكره ! ـ : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ! »

« فوالله ما برح رســـول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه . فسجى رسول الله بثوبه ووضعت له وســـادة من أدم تحت رأسه ، فأنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله مافزعت ولا باليت .. قد عرفت أنى بريئة .. وان الله عز وجل غير ظالمى . وأما أبواى فوالذى نفس عائشـــة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا أن يأتى من الله تحقيق ما قاله الناس !

« ثم سرى عن رسول الله فجلس ، وانه ليتحدر منه مثل الجمان فى يوم شات فجعـــل يمسح العرق عن جبينه ويقول :

ـ أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك ! »

وفى رواية البخارى :

« فقالت لى أمى :

ـ قومى اليه !

« فقلت :

ـ والله لا أقوم اليه فانى لا أحمد الا الله عز وجل!»

ونعود الى رواية ابن اسحق :

« ثم خرج الى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله من القرآن فى ذلك (من ســـورة النور) ثم أمر بمسطح بن اثاثة (ابن خالة أبى بكر) وحسان بن ثابت (شاعر النبى) وحمنة بنت جحش (بنت عمة النبى وأخت زوجته زينب) وكانوا ممن أفصح بالفاحشـــة فضربوا حدهم ... »

ويقول ابن هشام :

« فلما نزل هذا القرآن فى عائشة وفيمن قال ما قال

.. قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته :
ــ والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا ، ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذى قال لعائشة وادخل علينا (من الهم) !
« فانزل الله فى ذلك :
« ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »
« فقال أبو بكر :
ــ بلى والله ! انى لأحب ان يغفر الله لى !
« فرجع الى مسطح نفقته التى كان ينفق عليه وقال :
ــ والله لا أنزعها منه أبدا ... »

والذى يعنينا من شأن الافك كله فى هذا المقام ما كان من وقعه فى نفس أبى بكر ، وما كان بتأثيره من فعل أبى بكر .
وقد يكون بعض الامر فى مظهره امتناعا عن الفعل ، وهو مع هذا ــ بالاعتبار النفسى والخلقى ــ فعل أقوى ما يكون الفعل !

ان البركان فعل عنيف غاية العنف . ولكن أقوى منه بلا شك ذلك الحائل الذى ان وجد كف عمل البركان الثائر فلا تنطلق منه حمة واحدة ! فيظن الجاهل أن سكونه عن خمود وجمود ، وهو يتأجج بالضرام ، لأن « الفعل الاقوى » ــ وهو فعل الكابح ــ غاب عن عينه العشواء أو ادراكه الخابي !
ومثل ذلك كان حال أبى بكر :

رجل وقور حفيظ على كرامته عليم بمثالب الناس فهو أدرى الخلق بما يلحق بالرجل وآله من سبة

حديث كحديث الافك .

ولئن سمى من بعد افكا ، فما تناقلته الالسنة وهى تسميه افكا . وهذا الرجل الموتور المطعون فى سمعته وعرضه ، ما كان أحراه أن يدفع عن ابنته ما قيل . ويثور بمن خاض فى أمرها هذا الخوض الوبيل .

ولكنه لزم الصمت !

ومرضت ابنته ، وعادت الى بيته مدنفة تجهل ما يقال . وأبو بكر صامت ، بل وألزم نساء بيته الصمت المطبق ، وما أشق الصمت فى مثل هذا المعرض على النساء !

ولكن ماذا وراء هذا الصمت ؟

أتراه صمت البليد الذى لا يحس ؟

أتراه صمت العاجز عن الرد والردع ؟

أتراه صمت المستخزى ؟

أو هو صمت من نوع غير هذا كله ؟

المرجع فى هذا الى ما نعرفه عن حال أبى بكر . وحاله قاطعة بأنه لم يكن بليد الحس ، بل هو على النقيض من ذلك مرهف جياش العاطفة ... وهو حين يتعلق الامر بمواقف الحنان يعبر بدمعه قبل لسانه لفرط جيشانه . وغير معقول أن ابنته المريضة المطعونة فى سمعتها كانت عليه هينة فلا تهيج مشاعره الحارة بطبعها لمحنتها .

وهذه عائشة ـ فى رواية ابن اسحق ـ تقول :

ـ والله ما أعلم أن أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الايام !

ولكنه لزم الصمت أكثر من شهر ، على ما به من الكرب .

أهو صمت العاجز اذن ؟

وأى عجز بمثله وهو وزير محمـــد وحواريه الاول وصاحب نجواه وثانى اثنين فى كل موقف حازب لمحمد؟ اى عجز عساه يكون على مكانته وفصاحته ، وقد جهر بالفاحشة من جهر من ذوى قرابته (ابن خالته مسطح) وذوى قرابة النبي (حمنة بنت جحش) وشاعر النبى حسان بن ثابت ؟

لقد أرجف المبطلون فى جراة ما بعدها جراة ، أفلا يجسر هو بالحق مثل جسارتهم بالبهتان ؟ وما كان صمته ليسكت الالسنة ويقتل الفرية فى مهدها ، وقد صرحت مسفرة من وجهها الكريه حتى ملأت الاسماع. فليس عذره فى الصمت من هذه الجهة اذن .

أهو صمت المستخزى ؟

لو كان عن خزى لما ظل على حاله من ملازمة النبى لا يتخلف عنه ، ولا يفاتحه مع هذا فى شيء !

هذا الصمت الذى سد على براكين غضبه وألمه المناقد هذا السد المطبق فلا تخرج منه كلمة ولا نأمة ، لابد أن له سببا آخر اذن !

وهو سبب أقوى من ألم الكرامة الجريحة ، ومن ألمه لابنته ولشرفه . اقوى منهما – على جبروتهمـــا – وأرجح كثيرا ، حتى لزم هذا الصمت العجيب وألزمه آل بيته ، وهو الذى لو شاء لرد وردع ، وانتصـــف لنفسه غير ملوم !

ولـكن الامر كان يتعلق لا بنفسه وكرامته وابنتـــه وشرفه وشرفها فحسب .

الامر أيضا – وقبل هذا كله – يتعلق بمحمد !

وحيث يكون لمحمد شأن ، فشـــأن محمد مقدم فى اعتباره على نفسه وابنته وسمعته وشرف بيته وعرضه، وان كان الذى به شخصيا من هـــذا الـكرب فوق ما

يحمل البشر !

هــذا وحده كاف لابراز نوع ومستوى حبه الفذ لمحمد ، ذلك الحب الذي هان بجانبه ـ حرفيا لا على المجاز والتخيل ـ أنكى وأوجع وأقما ما ينزل برجل مثله من الآلام والـكروب .

ثم أكان لديه فى براءة عائشة شك ؟

كلا !

ولـكن حين يتعلق الامر بمحمد انما يعنيه ما يألم له محمد ، فهو ينسى آلامه ليذكر محنة حبيبه ونبيه . ولا يعنيه الا أن ترتفع المحنة عن كاهله فيما أوذى به فى صدد زوجته .

عائشة زوج محمد تأتى عنده فى الاعتبار قبل عائشة ابنته . ومحنة محمد فى صددها تأتى عنده فى الاعتبار قبل محنته فى ابنته وفى كرامته . فمحمد اذن صاحب الحق وحده فى الـكلام ، وفى الرد ، ان شاء صــدق ما يقال ، وأن شاء كذب ونفى .

وتغضب عائشــة وتهيب بأبيها أن يجيب النبى ، فيكون كل رده عليها :

ـ والله ما أدرى بماذا أجيبه !

لأنه أمر لمحمد فيه شأن ، فالامر كله اليه وحده ، بغير تأثير ، وبغير دفاع . وهو متقبل ما يراه محمــد أيا كان !

صمت يلتبس عند غير الواعى بالجمود أو « عدم الفعل » ـ أو هو ما يســمونه برطانة هــذه الايام « سلبية » ! ـ وهو مع هذا فعل أقوى ما يكون الفعل ـ أو هو بتلك الرطانة ايجابية أقوى ما تكون الايجابية ـ لأنه احساس قوى جياش مضطرم له حاكم أقوى منه بين ملـكات النفس وينابيعها : حاكم قد لا يقدره

كل انسان قدره ، لأنه من ينبوع فذ لا يرقى اليه الا الاقلون : ينبوع ذلك الحب الفريد . والناس يتصورون سواهم على غرارهم !

ولهذا لا يعرف الفضل لأهل الفضل الا ذوو الفضل! وحين يندر ذوو الفضل ، ينــدر أيضا من يتصورون الفضل عند أهل الفضل ، ولا حول ولا قوة الا بالله !

ولما بشر محمد عائشــة ببراءتها لم ينطق ابو بكر أيضا . وهنا يبرز جانب آخر من شخصيتــه : جانب الـكرامة والترفع .

لئن كانوا قالوا فهو يعلم أنه فــوق ما قالوا . وما كل فرية كفؤ للرد عليها ، ولا ســيما حين تنزل الى مســتوى رمى الاعراض الطــاهرة بأخس المفتريات واقذرها . وبحسبه أن قد ظهر الحق .

وكان قصــاراه حين وقع النبى الحــد على كبار المرجفين ، وفيهم مسطح ابن خالة أبى بكر ، انه أقسم لايعوله كما كان يفعل لفقره . فكانت تلك بادرة غضبه الوحيدة

وها هنا ملحظ لا تفوتنا عبرته العامة :

مسطح هذا ابن خالة أبى بكر ، وأســير فضله لأنه يعوله ويعول أمه . ومسطح هذا بين كبار مروجى هذه الفرية القــذرة التى تصم أبا بكر وتقمئه بما هو أنكى من القتل .

أنقول : اتق شر من احسنت اليه ؟

نقولها نعم ، ونقول أيضا :

لا حيلة لك أمام شر بعض الاخساء ، ولا سيما ان أنت أحسنت اليهم ، لأنهم يضمرون من الحقد على كل حال ما قد لا يجسرون على التعبــير عنه ، حتى اذا سنحت السانحة كانوا أدنأ الاعداء ، بغير سبب ظاهر

للبغضاء ، الا ما ينطوون عليه من غل ووضاعة .

كل العداوات قد ترجى ازالتها
الا عداوة من عاداك عن حسد ...

ثم ملحظ آخر :

ليذكر أهل الوعى ان ليس كل فرية قذرة لا تتلقى من المفترى عليه ردا فهى قائمة على أساس . فأهل الكرامة يترفعون عن النزول بأنفسهم الى حضيض الاتهام وكأنه شيء مشروع للمرجفين ، وكأنهم بحاجة الى الدفاع عن طهارتهم أمام كل وبش يخطر له الخوض فى أعراضهم بسوء نية ، فهم أكرم على أنفسهم من هذا. ثم يجب الا ننسى غضاضة الانشغال بهذه الدناءات التى تشبه المخاط ، أن ترفعه تتقزز ، وان تتركه تتقزز ... وان من المفتريات ما هو أنكى من المخاط ، وأدعى للتقزز من البراز ...

لذا كان قصارى سخط أبى بكر انه أقسم لا يعول ابن خالته الآثم ، واستثنى أمه لانها كانت بريئة من ذنبه .

ومع هذا كله ، فانه حبا لمحمد ، ولما يأتى به محمد ، ما أن نزل القرآن يسأل :

ــ الا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم !

حتى قال أبو بكر بغير تردد :

ــ بلى والله ! انى لأحب أن يغفر الله لى ! والله لاانزع نفقتى من مسطح أبدا ...

وملحظ أخير ، قبل ختام هذه السطور :

ذلك الحض على الصفح فى تلك الآيات من القرآن ، تأسيسا على حب الناس أن يغفر الله لهم ، ما أقربه فى وقعه على النفس عندى من قولنا نحن المسيحيين فى صلاتنا : « رب اغفر لنا ذنوبنا مثلما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا ... »

يوم الحديبية

وما يوم الحديبية بسر !

بعد الافك بقليل ، فى آخر سنة ست للهجرة بعينها ، خرج محمد فى ذى القعدة معتمرا ، قاصدا مكة حيث الـكعبة ، لا يريد حربا . ويقول فى ذلك ابن اسحق :

« واستنفر (النبى) العرب ومن حـــوله من أهل البوادى من الاعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت الحرام ... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والانصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، ويعلم الناس أنه انما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له » .

وعند عسفان ــ على مسافة مرحلتين من مكة ــ علم محمد أن قريشا خرجت بقضها وقضيضها وجعلت على قيادة خيلها خالد بن الوليد ليمنعوه من دخـول مكة بالقوة ، فسلك بالمسلمين طريقا آخر ، حتى اذا كان عند الحديبية نزل بمن معه وانتظر وفد قريش .

وتعاقبت الوفود وهو يقول لهم انه لا يريد حربا . لا يريد الا العمـــرة والطواف بالبيت . وهم يأبون الا صده .

يقول الزهرى :

« ثم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة ابن مسعود الثقفى ... فخرج حتى أتى النبى فجلس بين يديه وقال :

ـ يا محمد ! أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك (أهلك) لتفضها (تكسرها) بهم ؟ ! انها قريش ! قد خرجت معها العوذ المطافيل (النساء والأطفال) . قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لن تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله ! لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا !

« وابو بكر الصديق خلف رسول الله قاعد ، فقال :
ـ امصص بظر اللات ! انحن ننكشف عنه ؟ »
أبو بكر قاعد « خلف » محمد .

موقع يتخذه اجلالا لمحمد ، حتى لا يحاذيه فى المجلس وهو يستقبل وفد الاعداء . ويتخذه فى الوقت نفسه ليحميه من ظهره ، والظهر فى هذا المقام أحوج الى الحماية من الوجه . ويظل ساكتا لأن الكلمة لمحمد وحده . حتى اذا عرض الرجل بأن أصحاب محمد قد يخذلونه عند لقاء جيش قريش ، لم يملك هذا الرجل الوقور لسانه ، فسب الرجل بذلك اللفظ المقذع ... سبه هذا السب ، وهو الذى عرف بدماثة اللفظ وعفة اللسان فى معظم الاحيان ، حتى ان رجلا توعده بقوله ذات يوم :
ـ لأسبنك يا أبا بكر سبا يدخل معك قبرك !
فأجابه :
ـ بل معك والله يدخل لا معى !

وهو بعينه الذى أقذع الأفلون فى سب عرضه كما رأينا فلم يتحرك لسانه بجواب ، فضلا عن الاقذاع .

ولـكن الامر هنا يتعلق بولائه وصحبه لمحمد ، وكل ما يمس محمدا فكأنما يمس داخل نفس أبى بكر لغما شديد الانفجار .

ها هنا اذن لا محل للوقار والدماثة .

ها هنا يصدر عن أبى بكر ما يصدر عن البركان من الشواظ !

وندع هذا لنمضى فى سياق أحداث الحديبية :

أرسل محمد رسولا من قبله الى قريش ليبلغ أشرافها ما جاء له ، وأركبه بعيرا من ابله (أبل النبى) فقتلوا البعير ، وردوا الرجل خائبا بعد أن هموا بقتله. فأرسل محمد زوج ابنته عثمان بن عفان ـ لـكثرة عصبيته فى قريش ـ فاحتبسوه عندهم ، وبلغ النبى أنهم قتـلوه فاستعد لحربهم ، ودعا الناس الى بيعة الرضوان تحت الشجرة . قيل بايعهم على الموت ، وقيل ـ على رواية جابر بن عبد الله ـ بايعهم على ألا يفروا . وكانت عدة المسلمين سبعمئة ، وقيل ألفا وأربعمئة . ثم علم النبى أن عثمان لم يقتل ، فعدل عن حرب قريش .

يقول الزهرى :

« ثم بعثت قريش سهل بن عمـرو ، من بنى عامـر ابن لؤى ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له :

ـ ايت محمدا فصالحه ، ولا يكن فى صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ...

« فأتاه سهل بن عمرو . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، قال :

ـ قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل !

« فلما انتهى سهل بن عمرو الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم تكلم فأطال الـكلام ، وتراجعا (راجع كل منهما الآخر فى كلامه) ثم جرى بينهما الصلح ...

« فلما التأم الامر (على الرجوع هذا العام عن مكة وعلى أن من أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشـــا ممن مع محمـد لم يردوه عليه !) ولم يبق الا تسطير كتاب الصلح ، وثب عمر ابن الخطاب فأتى أبا بكر فقال له :

ـ يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟

« قال أبو بكر :

ـ بلى !

« قال عمر :

ـ أو لسنا بالمسلمين ؟

« قال أبو بكر :

ـ بلى !

« قال عمر :

ـ أو ليسوا بالمشركين ؟

« قال أبو بكر :

ـ بلى !

« قال عمر :

ـ فعلام نعطى الدنية (الذل) فى ديننا ؟

« قال أبو بكر :

ـ يا عمر ! الزم غرزه ! (أمره وطريقتـــه) فانى أشهد انه رسول الله !

« قال عمر :

ـ وأنا أشهد انه رسول الله !

« ثم أتى عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ـ يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟

« قال النبى :

ـ بلى !

« قال عمر :

ـ أولسنا بالمسلمين ؟

« قال :

ـ بلى !

« قال عمر :

ـ أوليسوا بالمشركين ؟

« قال :

ـ بلى !

« قال عمر :

ـ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

« فقال النبى :

ـ أنا عبد الله ورسوله . لن أخالف أمره ! ولن يضيعنى ! »

وأذعن عمر .

وعند هذا نقف قليلا لننظر فيما كان من أبى بكر فى هذا المقام ...

وانا لنرى من أمره ها هنا نظير ما كان من أمره ذات يوم قبل ذلك بسنين ، غداة ليلة الاسراء .

« والله لئن كان قال ، لقد صدق ! »

فمحمد ها هنا ـ عند أبى بكر ـ منبع الحق والصواب ، وهو مقياسهما الذى لا معقب عليه ، كما كان فى ذلك اليوم حين كذب الناس ما أنبأهم به من حديث الاسراء . وكما كان عنده دائما فى كل موقف ، وفى كل مقام ، أيا كان الموقف والمقام !

كان ظاهر الامر وما درج عليه حال الناس يناقض

حديث الاسراء . ولكن حديث الاسراء مصدره محمد. اذن فما يخالفه هو الباطل مهما كان من أمر التجربة والعقل المنطقى المألوف ! فأبو بكر بكل ما أوتيه من عقل ومنطق وحصافة تابع لمبدأ جديد هو محمد ، وعقله ومنطقه وحصافته وتجربته فى خدمة هذا المبدأ وفى حدود هذه الخدمة وكفى ! انه لم يفقد حصافته ولكنه طوعها للمبدأ القائم تطويعا .

وظاهر الامر أن الحديبية خذلان للمسلمين واذلال لكرامتهم ، وتنافى ما وعد الله المؤمنين من العزة والنصر . ولكن الصلح على هذا النحو ارتآه محمد وارتضاه ، فما ارتآه محمد وارتضاه هو الحق والصواب والخير ، وما يخالفه هو الباطل الحقيق بالمهانة والاستخزاء مهما يكن من أمر النظر الذهنى والاحساس الظاهر ...

وها هنا أيضا يبرز الفارق الحاسم بين الرجل من طراز أبى بكر والرجل من طراز عمر بن الخطاب ...

أبو بكر أحب محمدا حبه الفذ فصدقه بلا قيد ولا شرط .

وعمر اقتنع بما جاء به محمد ، فأحبه فى ضوء عقله ، ولذا فهو على عمق ايمانه لا يستغنى بالايمان عن العقل ، بل هما عنده صنوان ...

وهكذا نجد أبا بكر « أحادى المحور » منذ اسلامه ، تدور الحياة كلها ويدور الكون عنده حول محور لا محور سواه .

ونرى عمر بن الخطاب « ثنائى المحور » وكأن عقله وايمانه فرسا رهان . فاذا بدا بين محوريه تباين ثارت ثائرته واستبدت به الحيرة ...

أجل . هو يوم آخر كيوم حديث الاسراء .

وآية ساطعة أخرى على أن « حب محمد » ذلك الحب الفذ هو المحور الاوحد الذى باتت تدور حوله حياة أبى بكر فى سلاسة لا أمت فيها ولا اضطراب ...

ومَرِضَ محمد ..

وتمر السنون وابو بكر حوارى محمد ووزيره فى كل شأن . فى مواطن الغزو . وفى يوم الفتح . وبعد الفتح. الى أن كان يوم اعتلت فيه صحة محمد .

يقول ابن اسحق بسند ينتهى الى عائشة :

« وتتام به وجعه « اشتد » وهو يدور على نسائه حتى استعز به (غلبه على نفسه) وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى فأذن له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى بين رجلين من أهله عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتى ، ثم غمر رسول الله (أصابته غمرة المرض أى شدته) واشتد به وجعه فقال :

ـ هريقوا على سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج الى الناس فأعهد اليهم ...

« فأقعدناه فى مخضب لحفصة بنت عمر ؛ ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول :

ـ حسبكم ! حسبكم ! »

وفى رواية الزهرى :

« حدثنى أيوب بن بشير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد واستغفر

لهم ، فأكثر الصلاة عليهم ثم قال :

ـ ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وما عنده فاختار ما عند الله ...

« ففهمها أبو بكر ، وعرف أن النبى نفسه يريد ، فبكى وقال :

ـ بل نحن نفديك بأنفسنا وابنائنا !

« فقال النبى :

ـ على رسلك يا أبا بكر !

« ثم قال :

ـ انظروا هذه الابواب اللافظة فى المسجد فسدوها، الا بيت أبى بكر . فانى لا أعلم أحدا كان افضل فى الصحبة يدا منه ... »

وفى رواية ابن اسحق بسند ينتهى الى بعض آل أبى سعيد بن المعلى :

« ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ فى كلامه :

ـ فانى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ... »

حس مرهف أشد ما يكون رهافة فى كل أمر يتعلق بمحمد . ومحمد مريض ولم يكن من قبل يشكو مرضا. والوجع عليه شديد حتى لتكاد قدماه تعجزان عن حمله فهو يجرهما وتخطان فى الارض من ثقل المرض عليه وافتقاده الجهد . وهو قد آثر عائشة بنت أبى بكر بالرقاد فى بيتها حين اشتد عليه مرضه . فلا عجب يقع كلام محمد على المنبر وقعا خاصا لدى أبى بكر ، فيكون المتفرد بادراك ما يرمى اليه من النذير باقتراب منية محمد ، فيبكى .

ويهون محمد على صاحبه الخطب الذى لا محيص

عنه ، ثم يردف ذلك بوصيته أن يسدوا جميع الابواب المفضية الى المسجد ، مكان الصـــلاة ، ورمز الدولة الدينية ومقرها ، والساحة المفضية الى بيوت النبى ، فلا يتركوا الا بابا واحدا ، هو باب أبى بكر ، ويزكيه للناس هذه التزكية التى لم يؤثر بها أحدا سواه . فلو كان لمحمد أن يتخذ من البشر خليلا لـكان أبا بكر .

تمييز فى الرتبة من غير عنوان التمييز . فلولا الحائل لـكان المتفرد من دون الناس جميعا بمقام الخليل الذى يجمع كل عناصر الحب وسماته. وأنه ليخصه بالتوديع، ويسرى عنه لوعة الفراق ببشـارة التلاق :

ـ ... ولـكن صحبة واخاء ايمان حتى يجمع الله بيننا عنده !

وانفراد أبى بكر بالفطنة الى مرمى نعى النبى نفسه للناس فى هذه الخطبة دليل قوى على الاحساس الذى يربط المحب بحبيبه .

وافراد النبى أبا بكر بهذه التحية والمنزلة دليل قوى على الوشيجة القلبيـــة المتبـــادلة بينهما ، على تفاوت مضمون الشحنة الوجدانية عند هذا وذاك .

فأبو بكر يحب محمدا حب التقديس والولاء .

ومحمد يحب أبا بكر حب الاعزاز والتقدير .

ومنزلة محمد عند أبى بكر لا تعدلها منزلة أحد من البشر كائنا من كان ، حتى نفسه وولده .

ومنزلة أبى بكر ـ وان بقيت منزلة مهتـد مؤتم ـ الا انها فى الصدر من منازل المهتدين المؤتمين لا تعلوها من بينهم منزلة كائن من كان ، ولا تعلو اليها .

وهكذا على اختلاف المنزلتين ، يبرز كل منهما عنـد صاحبه أشرف بروز يسمح به قدره الطبيعى ...

ثم عاد النبى الى فراشه فى بيت عائشة ، وزادت

وطأة المرض عليه فغشى عليه من الحمى فى فترات كثيرة ،
فقال ـ برواية الزهرى عن عائشة ـ :

ـ مروا أبا بكر فليصل بالناس !

فجعلت عائشة تتعلل :

ـ يا نبى الله ! ان أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت
اسيف كثير البكاء اذا قرأ القرآن ...

فكرر عليها أمره أن يصلى بالناس أبو بكر ، وعادت
عائشة تتعلل ، وتغرى بالتعلل معها حفصة ، حتى ضجر
النبى وقال :

ـ انكن صواحب يوسف ! فمروه فليصل بالناس !

وفى رواية ابن اسحق أن النبى أمر عبد الله بن زمعة
ان يدعو أبا بكر للصلاة بالناس ، وكان أبو بكر غائبا ،
ووجد أمامه عمر بن الخطاب فقال :

ـ قم يا عمر فصل بالناس !

« فقام عمر ، ولما كبر سمع النبى صوته ، وكان
عمر رجلا مجهرا (جهير الصوت) فقال النبى :

ـ فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ! يأبى
الله ذلك والمسلمون !

« فبعث الى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك
الصلاة فصلى بالناس .. »

وهى آية أخرى ناطقة بعلو شأن أبى بكر على سواه
من الناس عند محمد ، وانه فى الصدارة بين المهتدين
به لا يعدل به أحدا . وان محمدا لم يجد من يقوم
مقامه سواه ، وان كان عمر بن الخطاب !

ومثلها فى الدلالة ما جاء فى رواية ابن اسحق :

« لما كان يوم الاثنين خرج رسول الله صلى الله عليه
وسلم عاصبا رأسه الى صلاة الصبح ، وأبو بكر يصلى
بالناس ...

« فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرج الناس فعرف أبو بكر أن النـــاس لم يصنعوا ذلك الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكص من مصـــلاه (تراجع عنه) فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظهره وقال : « صل بالنـــاس ! »

« وجلس النبى الى جنبه ، فصلى قاعدا عن يمين أبى بكر ، فلما فرغ من الصلاة اقبل على الناس فكلمهم رافعا صوته ، حتى خرج صوته من باب المسجد ...

« فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه قال له أبو بكر :

ـ يا نبى الله ! انى اراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب ، واليوم يوم بنت خارجة (زوجته فى السنح ضاحية المدينة) أفآتيها ؟

« قال النبى : نعم !

« ثم دخل النبى ، وخرج أبو بكر الى أهله بالسنح »

وليس همى ها هنـــا تزكيـــة جـــدارة أبى بـــكر بخلافة محمد ، ولـــكن الذى يعنينى ما كان له من مكانة عند محمد لا تعدلها مكانة . مثلما كانت مكانة محمد عنـــد أبى بكر لا تعدلها مكانة، على اختلاف المـــكانتين باختلاف الرجلين ...

وهذه النصوص قاطعة بذاتها ، بصرف النظر عما حدث بعد ذلك منمعرفة الناسقدر أبى بكر واختيارهم اياه لخلافة محمد . فســـواء فعلوا أو كانوا لم يفعلوا فليس يغير هذا شيئا على الاطلاق من علو مكانة أبى بكر عند نبيه وحبيبه ، ومن حرصـــه على التنويه به قولا وتقديمه على سواه عملا ، وانكاره أن يقوم غيره مكانه ، واصراره الغاضب على دحض معارضة عائشة لقيام أبيها مكان النبى فى الصلاة . فليس عنده مثـــل أبى بكر !

يوم محمد

ولكن الانتعاش الذى حدث لمحمد ذلك الصـباح كان اشبه بصحوة الموت . فلم يلبث أن انتكس ودخل فى النزع ، وهو ـ برواية الزهرى ـ مضـطجع فى حجر عائشة « وتوفى حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم .. »

وقام عمر بن الخطاب فى الناس فقال :

ـ ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ! وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات ! ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، وليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات ! »

موقف مؤمن شديد الاعجاب ، حتى ليأبى أن يصدق أن محمدا بشر يلم به الموت كما يلم بسائر البشر ..

ويستطرد الزهرى قائلا :

« واقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت الى شىء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة (نوع من ثياب اليمن) فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : « بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب

الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا !»

« ثم رد البرد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال :

ـ على رسلك يا عمر ! أنصت !

« فأبى عمر الا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ أيها الناس ! انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ! ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت !

« ثم تلا هذه الآية :

ـ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين !

« فوالله لكأن الناس لم يعلموا ان هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عن أبى بكر ، فانما هى فى أفواههم . وقال عمر : « والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت (دهشت) حتى وقعت الى الارض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله قد مات ! »

صورة تناقلتها الألسن على مدى الاجيال ، ورآها الناس ـ بحق ـ فتحا قائما برأسه ، ثبت العزائم الواهنة ، وأرسى قواعد الايمان فى النفوس فلا تميد بذلك الزلزال العظيم ، واستخرج منها الأكثرون حقيقة شائعة : ان المفارقة تامة بين أبى بكر وعمر ، وان أبا بكر كان رجل الواقع حيث كان عمر رجل العاطفة .

وهذا كلام لا ينفذ الى ما وراء السطح من سلوك الرجلين الظاهرى ..

فعمر كان رجل عاطفة فى هذا المقام ولا مراء . ولكن

أبا بكر كان أيضا رجل عاطفة فى هذا المقام بالذات على الخصوص ، وعاطفته أقوى من عاطفة عمر وأعمق !

كانت عاطفـة أبي بكر على مستوى أعلى : ليست عاطفة الجزع أمام مفاجأة مصمية ، أو عاطفة اشفاق على النفس من هول ما منيت به من رزء لا كفاء له — وهو حال عمر — ، بل كانت عاطفة الاحساس بالواجب نحو محمد فى هذا الوقت العصيب . كانت عاطفة المشغول بمحمد لا المشـغول بنفسـه . كانت عاطفة من ينسى مصيبته — على جسامتها وفداحتها — فلا يذكر شيئًا سوى ما ينبغى لمحمد وقد ألم به طائف الموت ، حذر امتداد يد الموت الى أكثر مما لا حيلة لأحد فى ردها عنه ، وهو جسم محمد .

أما محمد المعنى . أما محمـد المبدأ . أما محمـد الدعوة . أمامحمد الدولة . أما محمد الهادى ، فذلك ما ينبغى ألا يسمح للموت بالاجتراء عليه !

انها العاطفة الراقية التى تلزم صاحبها وتلهمه يقظة العقل والحس ، وضبط النفس ، وحضور البديهة ، وتوقد القريحة ، كى يكون نعم الحارس أمام هذا الغائل الرهيب ، فلا يسمح له بتجاوز ما وقع فى يده فعلا ، وهو على كل حال أمر لا محيص عنه ، فلا جدوى من الجمود عنده . وما يستغرقه الجزع من همته هو أحوج ما يكون الى استجماعه للقيام بالحراسة الواعية الضارية لتراث محمد حتى لا يذهب بذهاب بدن محمد ..

عاطفة استغرقت عمر .

وعاطفة استنفرت أبا بكر !

عاطفة جازعة أطاشتها الكارثة ، فى مقابل عاطفة أيقظ الهول المحدق أرقى ملكاتها ، وأذكى قريحتها وابتعث كوامن همتها وبديهتها ..

فلا غرو ان كان أبو بكر ـ لأنه ذلك المحب الفذ ـ اليق الرجلين أن يكون رجل الساعة !

وننظر فى كلمته الملهمة التى وجهها الى نبيه وحبيبه فى ذلك الموقف الرهيب ، فماذا تراه قال ؟ قال :

ـ أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها !

تقرير واقع لا حيلة فيه . ولكن أى شىء يترتب على هذا الاقرار ؟ أهو جزع الواله الفارق فى دمعه المدرار ؟ أهو عجز المغلوب على أمره أو طيش من لا يلم شتات لبه المستطار ، ولا يقر له فى ساعة الروع قرار ؟

كان ذلك ممكنا . وهو ما فعله الكثيرون فى ضحوة ذلك النهار ..

ولكن أبا بكر رتب على ذلك الاقرار شـيئا من نوع آخر تماما : رتب عليه ما عبر عنه بالشـطر الآخر من عبارته الوجيزة العميقة التى كشفت عن مدى ما لديه من اقتدار واصرار ..

قال : « ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا .. ؟ »

وها هنا بيت القصيد ..

الموتة الحتم كنت لا محالة ذائقها يا محمد ، وما كان بيدنا ولا بيد أحد أن يردها عنك !

أما الموتة الأخرى : الموتة التى تصيب رسالتك التى بعثت بها وعشت لها ، وتصيب المعنى والمثل الأعلى الذى تجسم فيك ، فهذه موتة بيدنا نحن الا تدنو منك . وهذا عهد علينا الا تذوق هذه الموتة أبدا ..

انه قرار أنطق به لسان أبى بكر ذلك الحب الفذ الذى يستنهض العزم ، ويلهم الحس والفهم .

وبلسان هذا الحب المتين الفذ المحلق الملهم خرج الى الناس يقول لهم : أما محمد البشر فقد مات ، وأما الذى كان محمد رسوله الى الناس فحى لا يموت ! أما

محمد البشر فما كان له بقاء ، وأما محمد المعنى والمثل فعصى على الفناء !.. أى شىء الا هذا ! الا أن الموت نفسه لن يقوى عليه ، ولا سبيل له اليه !

وبدافع من هذا الحب الفذ الملهم جند أبو بكر نفسه وقاء لمحمد المعنى الذى ينبغى الا تمتد اليه غائلة الموت. وصارت حياته منذ تلك اللحظة وقفا على هذه الغاية ، حتى النهاية !

لقد كان محمد عنده معيار الصدق والصواب الذى يجب على الواقع الحسى أن يخضع له ويطابقه والا فعليه العفاء! واليوم !

اليوم على الواقع الحسى أيضا أن يخضع لحقيقة واحدة : ان محمدا المعنى . وكل ما عاش له محمد . وما كان يمثله محمد . هو معيار الثبات والبقاء أولا وأخيرا، وكل ما خالف هذا المبدأ الأعلى فهو وهم باطل ولو تصدى لاثباته الانس والجن بعضهم لبعض ظهيرا .. !

ما يمثله محمد كان فى حياة محمد أساس الحق الاوحد. وما يمثله محمد صار بعد وفاته أساس الوجود الاوحد! «ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا !» فمحمد كان لسان السماء. ورسول الله . وهذا المعنى أدعى للتأكيد فى مواجهة الموت أكثر مما كان مؤكدا فى مواجهة الحياة

حب محمد الهمه فى حياته الولاء والفداء . وحب محمد ـ بعد موت محمد ـ الهمه غيرة المحب الصادق على كل ما يجعل حبيبه موصول البقاء عالى اللواء عصيا على سطوة الفناء ...

وبهذا الاحساس المستغرق واجه أبوبكر أفدح الأرزاء، واستقبل ما أتى به الغد من الاعباء ، مستعدا لتحدى الدنيا وما فيها غير مستريب لحظة واحدة فى صدق احساسه أو تتبدل الارض غير الارض والسماء غير السماء !

دهْرُ الموت !

تمت البيعة لأبى بكر ، فصار خليفة محمد .

وكانت هذه البيعة ـ بيعة السقيفة ـ « فلتة » كما قال عمر ، فى ذلك الاجتماع العاصف فىعقر دار الانصار، مما يعرفه الخاص والعام . ولسنا فى هذا الكتاب معنيين بسرد الأحداث ـ على جسامتها ـ لذاتها ، وانما الذى يعنينا من الأحداث مدلولها لا ظاهرها الذى لا يجهله أحد .

انتهى الأمر الى أبى بكر اذن . فأعطيت القوس باريها. وصار أشد الناس حبا لمحمد ، هو بعينه حارس مجد محمد ، والحفيظ على ما أرسى قواعده وما مثله فى حياته للناس .

وبوحى هذا الحب ، وبوحى هذه الغيرة ، وقف أبو بكر يقول للناس غداة وفاة النبى ، على ما يذكره الطبرى :

ـ أيها الناس ! انما أنا مثلكم . وانى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق ان الله اصطفى محمدا على العالمين ، وعصمه من الآفات. وانما أنا متبع ولست بمبتدع. فان استقمت فتابعونى . وان زغت فقومونى . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة

سوط فما دونها . الا وان لى شيطانا يعترينى ! فاذا اتاني فاجتنبوني !

كلام رجل يقدر مسئوليته التى لا مسئولية مثلها تمام التقدير . فهو مدرك كل الادراك حدود طاقته ، ومدرك كل الادراك ذلك الفارق بين ذاته وذات محمد ، وبين وضعه ووضع محمد :

ــ ايها الناس ! انما انا مثلكم !

لا يعنى بذلك انه مثلهم بشر ، فقد كان محمد بنص القرآن مثلهم بشرا . بل يعنى أنه بشر ليس له مدد من الوحى ولا سند من العصمة .

ــ وانى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله يطيق .

وكيف عساه يطيق ما كان محمد يطيق ؟ أليس : « الله قد اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات؟ »

ذلك اذن جماع الفوارق بينه وبين محمد : محمد ليس كمثله أحد ــ وان كان بشرا ــ لأن الله اصطفاه على العالمين من دون معاصريه جميعا ، وخصه وحده « بالعصمة من الآفات » .

أبو بكر اذن يجب أن يراه رعيته على حقيقته : رجلا مثلهم غير معصوم من الآفات والنقائص . وليس الله هو الذى اصطفاه ، وانما هم الذين اختاروه وبايعوه وارتضوه .

فأين اذن يلتمس المرجع للاصابة والسداد ، حيث لا عصمة من الزلل والآفات ؟

محمد المصطفى المعصوم ذلكم المرجع !

ــ .. وانما أنا متبع ولست بمبتدع !

ليس من عند أبى بكر ما يأمرهم به منذ اليوم ، ولا عن هواه ورأيه يصدر ، بل عن فعل محمد وقوله ،

فان أطاعوه انما محمدا على الحقيقة يطيعون !

وشعار الاتباع هنا أوفق شعار لقوم حديثى عهد بدين تحول بهم عن دين أجدادهم . ولئن دانوا به فعن طاعة لمن ينطق بوحى السماء . أما وقد انقطع الوحى وصار الأمر لبشر منهم فلا أساس لولائهم ولا ضمان !

وتأسيسا على اقامة هذا المرجع الاوحد للسياسة والحكم ، يجب أن يكون هذا المرجع فوق الجميع بلا استثناء : فوق أبى بكر وفوق جميع الرعية على السواء .

ويستتبع هذا حتما :

ـ فان استقمت (على هذا الاتباع) فتابعونى ، وان زغت فقومونى ..

هى اذن « سيادة القانون » التى ليس مثلها ضمان للعدل . والعدل أساس الملك ، وليس عنه للرعية غنى .

ذلك العدل الذى تمثل فى محمد :

ـ وان رسول الله قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة سوط فما دونها !

ولكن أين هو من هذا الكمال فى العدل والتنزه عن الظلم ؟ انه لأمين كل الامانة حين يطلعهم فى نفسه على آفة تثلم العدل حيث كان محمد مبرءا من الآفات :

ـ الا وان لى شيطانا يعترينى ، فاذا أتانى فاجتنبونى!

يريد أن غضبه ان ثار فليبتعدوا عنه كيلا يصيبهم من شواظه بظلم لا يملك له فى حينه كبحا ، ويركبه الندم عليه حين يثوب الى المعهود من حلمه .

أمين هو جد أمين ، يطلع رعيته على عيبه الخفى ، كما يطلع التاجر الشريف من يشترى منه سلعة على عيبها المستور ، ابراء للذمة ووفاء بالعهد .

الاتباع هنا ضمان الرعية .

والاتباع هنا ضمان الراعى أمام نفسه انه لن يحمل

الناس على هواه ، وانما هو قائم بواجب ليس اليه مرجعه ، بل الى من كان محور حياته منذ بسط اليه يده مبايعا .

والاتباع بعد هذا منه ما هو سهل يقوم على تنفيذ أمر صريح للنبى ، ومنه ما ليس سهلا لان النبي ليس له فيه أمر صريح . وعند غياب النص ترجع المسألة الى « الروح » .

وفى هذه المواقف « الجديدة » يتبين الفرق بين «التابع» الغفل الذى لا ينبع تنفيذه وسلوكه فى أعماق نفسه المتشبعة بالايمان بالمتبوع ، وبين «الحوارى» الذى يفيض اتباعه وسلوكه عن التشبع بحب متبوعه وفهمه .

فى هذه المواقف « الجديدة » تتكشف عبقرية المحب الذى « يعيش » حياة حبيبه نيابة عنه . يعيشها له ، وكأنه جعل من نفسه هيكلا تحل فيه روح ذلك الحبيب وتمارس فيه ارادتها وكأن عادى الموت لم يستأثر به !

ومنذ مات محمد صارت جميع المواقف « مواقف جديدة » ، لان الظروف كلها تغيرت تغيرا فاحشا .

وكان أول هذه المواقف التى أنبرى لها أبو بكر بعد بيعته مسألة بعث أسامه بن زيد بن حارثة بجيشه الى تخوم الشام .

يقول ابن اسحق :

« وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة الى الشام ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون . فبينا الناس على ذلك ابتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكواه الذى قبضه الله فيه .. واستبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فى بعث أسامة بن زيد ، وهو فى

وجهه ، فخرج عاصبا راسه حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناس قالوا فى أمر أسامة :

ــ أقر غلاما حدثا على جلة المهاجرين .والأنصار !

« فحمد النبى الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال :

ــ أيها الناس ! انفذوا بعث أسامة ! ..

« ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانكمش (أسرع) الناس فى جهادهم واستمز (استبد) برسول الله وجعه فخرج أسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف من المدينة على فرسخ ، فضرب به عسكره ، وتتام اليه الناس . وثقل رسول الله فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... »

وفى رواية الطبرى استئنافا لهذا الامر :

« ولما بويع أبو بكر قال :

ــ ليتم بعث أسامة !

« وقد ارتدت العرب اما عامة واما خاصة فى كل قبيلة ، ونجم النفاق .. والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم وقلة عددهم . فقال الناس لأبى بكر :

ــ أن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين !

« فقال أبو بكر :

ــ والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته ! »

وفى رواية عن الحسن البصرى :

« ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته

بعثنا على أهل المدينــة ومن حــولهم ، وفيهم عمر بن الخطاب ، وأمر عليهم أسامة بن زيد ، فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله ، فوقف أسامة بالناس ، ثم قال لعمر بن الخطاب :

ــ ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه ، يأذن لى أرجع بالناس . فان معى وجوه الناس ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله (متاعه النفيس وأهل بيته) وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون ! »

موقف جديد خطير !

بل هو أخطر موقف يتعرض له الاسلام منذ انتشر وصارت له دولة . وقائد الجيش الذى به جملة الناس وخاصتهم أول من أدرك خطورة الحالة ، وأن « أمن الدولة » أولى بالاهتمام من الغزو الخارجى ، ورجوعه بالناس أليق بمقتضى الحال . وكان فى جيشه عمر بن الخطاب فرأى هذا الرأى ، وقبل القيــام بالمهمة التى وكلها اليه القائد كى يراجع الخليفة .

ثم موقف جديد آخر تسوقه بقيــة حديث الحسن البصرى :

« وقالت الأنصار (لعمر) :

ــ فان أبى الا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب اليــه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة » .

ها هنا اذن موقفان جديدان :

ارتداد العرب عامة وخاصة ، جماعات وأفرادا حتى ليخشى أن يتخطف المشركون المسلمين

واستياء الانصار من تولى القيادة « غلام حديث السن » على جلة الشيوخ منهم ومن المهاجرين ..

فماذا فعل أبو بكر ؟

يمضى الحسن البصرى فى حديثه قائلا :

« فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة (من الرغبة فى الرجوع بجيشه الى المدينة ليكون ردءا للخليفة وللمسلمين فيها) فقال أبو بكر :

ـ لو خطفتني الذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم !

« فقال له عمر :

ـ فان الانصار أمرونى أن أبلغك وانهم يطلبون اليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة !

« فوثب أبو بكر ـ وكان جالسا ـ فأخذ بلحية عمر فقال له :

ـ ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ؟! »

اذن فالجواب لا ثم لا فى المسألتين !

« الموقف الجديد » بكل خطره انما هو تحد آخر ينبرى به الموت بعد أن استأثر بجسم محمد متطاولا الى كل ما هو حى لا يموت فى محمد !

وهذا التحدى هو ما جند أبو بكر نفسه ـ بدافع غيرة المحب الفذ ـ كى يقهره . لا لأنه لا يعقل اطلاقا أن ينتصر الموت على ما له من جبروت فيستأثر بارادة محمد وما يمثله محمد !

« تمرد » أو « لا تمرد » . ردة أو لا ردة . ليفعل الناس جميعا ما شاءوا . فليس لهم الى اماتة أى شيء يتصل بروح محمد وارادته ومجده من سبيل !

وارادة كل انسان أبرز ما يتصل بشخصه وروحه . فلتكن ارادة محمد اذن أقوى من الموت . ومن كل ما يجنده الموت من الغوائل والعوامل ، بالغة ما بلغت من الجسامة والهول !

أمحمد مات حقا ؟

أو يظنون هذا ؟
لم يمت والله الا بدنه !

وآية هذا أن يمضى كل شىء وكأن محمدا لم يمت . فاذا الموت هو الذى اندحر ، حيث خال الكثيرون ـ أو خيل اليهم ـ انه دحر محمدا وانتهى الامر .. !

ولو تخطفتنى الذئاب لأتمن بعث أسامة !

ولو تخطفتنى لا استبدل بأسامة !

وما هو بالاتباع الحرفى ـ وان بدا كذلك فى الظاهر ـ لأنه اتباع نابع من الروح . وعن تقدير لكل جوانب الموقف الجديد . اما الاتباع الحرفى السطحى فيكون عن جهل بجوانب الموقف الجديد أو غفلة عنها .

فلئن شمل هذا السلوك من أبى بكر الجانب الظاهر من اوامر النبى ونواهيه فلأن هذا الظاهر واجهة الباطن الحى ونتيجة حتميه لازمة عنه . أما المتبع الحرفى حقا فهو الذى لا يرى الا الحروف أو الظاهر ولا يتجاوزها تقديره ، فيتبع عن غفلة وعجز ، لا عن بصيرة وذكاء .

لم يكن عناد الجاهل الأحمق .

بل كان أصرار المؤمن وغيرة المحب !

كان يدرك أنه فى « موقف جديد » . ولكنه لا يعقل ان تكون للمواقف الجديدة ـ بالغة ما بلغت من الجبروت ـ سطوة على مبدأ الحق عنده ومبدأ الوجود : على ارادة نبيه الذى لا يراه الا منتصرا على الموت ، لأن ارادته من ينبوع هيهات يتطاول اليه الموت !

وبهذه الروح انثنى ليواجه حروب الردة التى انتشرت فى سائر ارجاء شبه الجزيرة العربية كما تنتشر النار فى الهشيم !

وانتصر أبو بكر

وهل تراني بحاجة الى بسط تفصيلات أحداث حروب الردة الطاحنة ؟

أمر حروب الردة يعرفه العام والخاص . وهنـــاك مؤلفات استقصت جوانبهـا العسـكرية وأخبارها فى اسهاب . ثم هى لا تعنينى فى كتابى هذا الا من حيث مدلولها على نفسية أبى بكر .

يقول الطبرى :

« ارتدت العرب عوام أو خواص . وتوحى (ادعى الوحى) مسيلمة وطلحة فاستغلظ أمرهما .. وكذلك سائر الناس فى كل مكان !

« وقدمت رسل النبى من اليمن واليمامة وبلاد بنى أسد ووفود من كان كاتبه النبى وأمر أمره فى الأسـود العنسى ومسيلمة وطلحة بالاخبار والكتب . فدفعـوا كتبهم الى أبى بكر ، وأخبروه الخبر ، فقـــال لهم أبو بكر :

ـ لا تبرحوا حتى تجىء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتهم وأمر ، وبانتقاض الامور !

« فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبى من كل مكان بانتقاض عامة أو خاصة . وتبسطهم بأنواع الميـل على المسلمين .. وكان أول من صادم عبس وذبيان : عاجلوه

قبل رجوع أسامة ! »

أبو بكر اذن كان يعلم سـلفا مدى خطورة « الموقف الجديد » . فما أن جاءته رسل بأخبار انتقاض العرب هنا وهناك حتى أخبرهم أن « أدهى مما وصفتهم وأمر» لا تلبث أن تأتى أنباؤه !

عن ادراك وبصيرة اذن أقدم على انفاذ جيش أسامة الى الشام وهو مفتوح العينين على ما يوشك أن يوشك أن يكون من العواقب والطوارق . ومع هذا بقى فى نفر ضئيل جدا بالمدينة ليواجه تلك العاصفة الهوجاء . ومعه ايمانه وحبه الفذ !

يقول الطبرى :

« وبعثوا وفودا الى المدينة (من المرتدين) فنزلوا على وجوه الناس يعرضون على ابى بكر أن يقيموا الصـلاة وعلى الا يؤتوا الزكاة . فعزم الله لأبى بكر على الحق وقال :

ــ لو منعونى عقالا (الحبل تقاد به الابل) مما كانوا يعطون النبى صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم عليه !

« فرجع وفد من يلى المدينة من المرتدة اليهم فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة واطمعوهم فيها . وجعـل أبو بكر ــ بعدما أخرج الوفد ــ على أنقاب المدينـــة (مداخلها الخارجية) نفرا وأخذ أهل المدينة بحضـور المسجد ، وقال لهم :

ــ ان الارض كافرة ! وقد رأى وفدهم منكم قلة ! وانكم لا تدرون اليلا تؤتون أم نهارا ! وأدناهم منكم على بريد .. وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ! فاستعدوا وأعدوا ! »

هو يدرى اذن فى هذا « الموقف الجديد » مبلغ قوة عدوه ومبلغ خطره . ويدرى مبلغ قلة أصحابه فى غياب

جيش أسامة . والمرتدون عرضوا عليه الاقرار بسلطان الدين : وآية ذلك اقامتهم الصلاة . ولكنهم رفضوا الاذعان لسلطان الدولة لانهم رأوا الزكاة — فى نظرهم — جزية دولة مركزية ليس لهم بها عهد !

كان يدرى .

ولم يتردد !

ولم يثنه أن عمر بن الخطاب — وهو من هو ! — اعترض عليه اعتراضا فقهيا ، حيث قال بصراحته المعهودة :

— كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . فمن قالها عصم منى ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله !

« فقال أبو بكر فى اصرار :

— والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ! فان الزكاة حق المال . وقد قال الا بحقها » .

ويلتفت أبو بكر الى صديقه فى حدة ممزوجة بالمرارة فيقول له :

— يابن الخطاب ! رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ! أجبار فى الجاهلية وخوار فى الاسلام ؟! انه قد انقطع الوحى وتم الدين . أو ينقص وأنا حى ؟

ان الزكاة هنا ركن من أركان ما رسمه محمد عن وحى ربه . وهيهات يقبل أبو بكر أن يعترف بأن الموت محا شيئا أيا كان مما رسمه محمد . وأراده . ودعا الناس اليه !

محمد حى فى دينه قبل كل شىء !

فهل يسمح لاحد أن يفتات على شىء من هذا الدين وفى أبى بكر عرق ينبض ؟

الموت خير من هذا عنـد أبى بكر ! لا بمنطق الواقع القديم أو الواقع الجديد ، بل بمنطق الايمان والحب الفذ الذى يعلو على كل واقع مهما استفلظ أمره واستطال !

وخرج أبو بكر لحرب المحدقين بالمدينة وهو فى القلة الضئيلة ممن بقوا معه فى غياب أسامة . لم يمهلهم بل باداهم المرة تلو المرة . وكان يقود الغارات بنفسه .

وانتصر ايمان أبى بكر وحبه الفذ على ذلك « الواقع الجديد » .. وردهم مدحورين .

وعاد أسامة فبدأ أبو بكر يجيش الجيوش والسرايا لقتال القبائل المرتدة فى أحد عشر موضعا متفرقة فى أرجاء الجزيرة العربية كافة !

ما وهن فردا ، فهل يهن وقد أوتى حشدا وجندا ؟

ومن حرارة ايمانه وهمته فردا سرت حمية الغـيرة والايمان الى أجناده وقواده .

وانتصر الحب الفذ على الموت فيما فرضه من ذلك « الواقع الجديد » . وارتد الموت حسيرا مدحورا عن محمد المعنى . ومحمد المبدأ . ومحمد الدعوة . ومحمد المثل . ومحمد الدولة ، عن محمد « الحبيب » بما لتلك الكلمة من معنى فذ فى وجدان ذلك المحب الفذ ..

فهل اندحر الموت وكفى ؟

كلا !

بل انقلبت الردة على الاسلام موجة من الفتوح تنداح دائرتها فتجتاح الامبراطوريتين اللتين تقاسمتا يومئـذ سلطان العالم المعمور . وتحقق بذلك لراية محمد نصر يمتد من بعد امتدادا لم يسبق له فى التاريخ نظير ..

وفى حروب الردة الضارية الضروس يبدو هذا الرجل الدمث الأسيف السريع البكاء وقد لبس للحادثات جلد نمر ! فهو ــ مثلا ــ يأمر خالد بن الوليد :

ـ لا تظفرن بأحد يقتل المسلمين الا قتلته ونكلت به جهرا ! .. ومن أصبت ممن حاد (عادى) الله أو صده ممن ترى فى قتله صلاحا فاقتله !

وها هو ـ مثلا ـ يقول للقعقاع بن عمر :

ـ واعلم ان شفاء النفس الخوض ! فاصنع ما عندك ! ماذا جرى لابى بكر الرقيق الاسيف ؟

جرى لأبى بكر انه الآن لا يصدر عما يملك من أمر نفسه . وانما هو الان يصدر بنفسه وارادته وكيانه جميعا عن عاطفة غلابة : عاطفة غيرة المحب ثار غضبه ثورة البراكين تقذف بالحمم لما استشعره من الاستهانة بحبيبه • وقد زاد من ثوراته أن يظن المستهينون ان هذا الحبيب ليس ـ وهو فى قبره ـ فى مأمن كاف وهو فى كنف محبه أبى بكر !

كلا !

ودون هذا تصغر كل كبيرة ويهون كل عزيز ! ولا بد للكافة أن يوقنوا بالقوارع المصمية أن كل ما يخص محمدا وهيبته فهو من كنف أبى بكر فى حرز حريز !

بلا استثناء !

كان محمد عند أبى بكر بشرا يتمثل فيه المثل الاعلى. فما بلغه عن ربه وما قضى به وشرعه للناس هو الدستور الذى لايرقى اليه ضريب من الشرائع والقوانين والآراء. وذهب محمد البشر .

وبقى قانون محمد سلطانا أعلى عند أبى بكر تعنو له كل هامة . ويتطامن أمامه كل بأس . ويطاطىء له كل راس . ومنه ينبع كل سند شرعى للسلطان .

فحيثما تعلق الامر بهذا القانون الاعلى لايمكن بحال من الاحوال أن يكون استثناء ! فما النفس ؟ وما الولد ؟ وما الناس كافة بجانب هذا القانون والمثل الاعلى الذى يتحدى فيه أبو بكر الموت وعوادى الدهر ، بعد أن صار محمد رهين القبر ؟

بهذا أخذ أبو بكر نفسه . وأخذ خاصة أهله . وأخذ أولى الناس بالرعاية والحدب : قد تدمع عينه رقة لهم ويتنزى قلبه .. ولكنه لا يستثنى منهم أحدا فى الخضوع المطلق لما يأمر به هذا القانون الاعلى : قانون محمد بشريعة القرآن وصحيح السنة !

كان محمد أحب اليه من أهل الدنيا جميعا . لايستثنى من ذلك الحب أحدا . لا نفسه ولا ولده ، كما رأينا . ثم مات محمد فكان حبه لمحمد المعنى الباقى محور

وجوده ومحور كل وجود فى نظره بعامة . لا يستثنى من ذلك أحدا . ولو كان فاطمة بنت محمد !

أجل فاطمة بنت محمد :

تلك التى أحبها محمد كما لم يحب أحدا من الناس . وهى بعينها التى ضرب بها محمد مثلا شرودا فى سيادة القانون : «والله لوسرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها!

القانون اذن فوق كل انسان وبلا استثناء ! »

هكذا استن محمد . وبهذا بلغ محمد عن ربه وأشهد الناس على ذلك .

ـ أولم يكن محمد هو الذى دعا الناس الى القصاص من شخصه بموجب هـذا القانون ، ان كان قد جلد لأحد منهم ظهرا أو لطم له خدا ؟

يقول الطبرى :

« عن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت اليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه . فقال : خذ بيدى يا فضل ! فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ثم قال : ناد فى الناس ! فاجتمعوا اليه فقال : « أما بعد ، أيها الناس فانى أحمد اليكم الله الذى لااله الا هو . . من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد (فليقتص) منه ! ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه ! ومن أخذت له مالا فهـذا مالى فليأخذ منه ! ولا يخش الشحناء من قبلى . فانها ليست من شأنى ! الا وان أحبكم الى من أخـذ منى حقـا ان كان له . أو حللنى (سامحنى) فلقيت ربى وأنا طيب النفس . وقد أرى ان هـذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مرارا ! »

فشخص محمد نفسه اذن ـ بموجب سنة محمـد وشريعته ـ كان خاضعا اتم الخضوع للقانون !

وفاطمة بنت محمد كانت ـ بنص كلام محمد عنها وبروح شريعته ـ خاضعة أتم الخضوع لذلك القانون.
وهذا القانون كل ما بقي من محمد بعد موت محمد .
فكيف يكون منه استثناء ولو لفاطمة بنت محمد ؟

ذهبت فاطمة بنت محمد الى أبى بكر بعد موت أبيها . وكانت أشبه الناس بمحمد شكلا وسمتا ومشية وايماء . فما بقي أحد من جلساء الخليفة ملك دمعه تأثرا لمرآها . وكان أبو بكر أشدهم بكاء ورقة لها.
ذهبت اليه فاطمة فى أمر « فدك » وهي قرية نخل من فيء خيبر كانت من سهم محمد فى الغنائم وجعلها فيئا لأهل بيته . وما زاد عن حاجتهم كان يقسمه بين فقراء المسلمين .
وعلى بكاء أبى بكر ورقته لها أجابها :

ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « نحن الانبياء لا نورث . ما تركناه صدقة » . وانى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها ...
وفى رواية ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة ، ان أبا بكر قال : « يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما . وانه قال : ان الانبياء لايورثون ! »
فقالت فاطمة : « ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. »
قال أبو بكر : « فمن يشهد بذلك ؟ »

فجاء على بن أبى طالب فشهد . وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا . فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها (على آل بيته وعلى الفقراء والمساكين) فقال أبو بكر : « صدقت يا ابنة رسول الله ! وصدق علي !

وصدقت أم أيمن ! وصدق عمر . وصدق عبد الرحمن ابن عوف ! وذلك ان مالك لأبيك . كان رســـول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمـــل منه فى سبيل الله . فما تصنعين أنت بها ؟ »

قالت فاطمة بنت محمد :

ــ أصنع بها كما كان يصنع بها أبى !

قال أبو بكر : « فلك على (عهد) الله أن أصنع كما كان يصنع فيها أبوك ! »

قالت فاطمة : « الله لتفعلن ؟ »

فقال أبو بكر : « الله لأفعلن ! »

قالت فاطمة : « اللهم اشهد ! »

وكان أبو بكر يأخـــذ غلتهـــا فيدفع منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ... »

موقف شديد أفدح الشـــدة على أبى بكر موقفه ذاك من فاطمة بنت محمـــد ! تلك التى بكى الرجال ــ وهو أولهم ! ــ لمرآها ، فهى أشبه خلق الله بمحمد ..

أتته فاطمة تسعى بعيد موت أبيها تسأله حقا لها ، وهى التى كان أبوها مصدر كل حق وسلطان فى أمتـــه جمعاء . وعاطفته نحو شخص محمـــد كانت حرية أن تحمله حملا على أن يجيبها لولا ان ما هو أقوى من ذلك كله منعه من تلك الاجابة منعا باتا .

وما من شىء أشـــد محنة على الرجل العاطفى من اضطراره الى الرفض فى موقف كهذا : الطالبة فيه بنت محمد . بل نسله الوحيد الباقى من بعده . وأشـــد الناس شـــبها به . وقبر أبيها لم يجف بعد . وأبوها أعز عليه من ذات نفسه وأخص ولده .

فما الذى عساه كان أعز على أبى بكر من البر بمحمد فى شخص ابنته الزهراء ؟

ليس عنـد أبى بكر ما هو أعز من كل شىء ـ حتى هذا الحد ـ الا محمد !

اعزازا ورعاية لمحمد المعنى . ومحمد المبدأ . ومحمد المثل. ومحمد القانون. داس أبو بكر قلبه فى ذلك الموقف؟

الى هذا الحد : الى حد تقديم محمد المعنى على محمد الأب ، كان هذا الحب الفذ العميق الواعى . فلو أنه ملك بحال من الاحوال أن يرضى فاطمة لأرضاها ولكان ذلك أحب اليه من الدنيا وما فيها !

ولـكن القانون الذى تلخص فيه كل ما هو باق من محمد كان أقوى عنده من كل اعتبار على الاطلاق .

واستجمع أبو بكر شـجاعة ايمانه وقالها صريحة حاسمة مدوية : « لا استثناء لـكائن من كان ، ولو كان فاطمة بنت محمد ! »

قالها وعينه تدمع ، وقلبه يدمى . ولـكنه قالهـا لأنه لم يكن له عن قولها محيص ، مدفوعا فى اغضـاب وحيدة محمد بحبه الفذ لمحمد !

واشتدت لواعج الالم لذلك الثمن الباهظ الذى أداه فى سبيل « سيادة القانون » فصحب عمر بن الخطاب يسعيان الى بيت فاطمة يريدان استـلال غضـبها بالمحاسنة والتبرير ، لا بالرجوع عما رآه أبوبكر واضحا كالشمس رأد الضحى ...

واستأذنا عليها . فأبت أن تأذن لهما !

فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط . فسلما عليهمـا فلم ترد عليهمـا السلام ! فتكلم أبو بكر فقال :

ـ يا حبيبـة رسول الله ! والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى ! وانك لأحب الى من عائشـة ابنتى ! ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده !

أفتراني اعرفك وأعرف فضلك وشرفك ثم أمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ ألا اني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا نورث ! ما تركناه فهو صدقة ! »

فقالت فاطمة : « أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ »

قالا : (أبو بكر ، وعمر) : « نعم ! »

فقالت فاطمة :

ــ ناشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : « رضاء فاطمة من رضائي وسخطها من سخطى ؟ »

قالا : « نعم ! سمعناه من رسول الله »

فقالت : « فاني أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتماني ! ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه ! »

فقال أبو بكر :

ــ أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يافاطمة!

ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه تزهق... وخرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم :

ــ يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتموني وما انا فيه ؟ .. لا حاجة لي في بيعتكم ! أقيلوني بيعتى !

أجل يبكي أبو بكر حتى تكاد نفسه تزهق رقة للتي صدق كل الصدق حين قال انها أحب اليه من عائشة ابنته ، لأن أبا فاطمة ــ بالصدق كل الصدق ــ كان عنده أحب اليه من نفسه. وود صادقا لو فداه بنفسه وولده

ما من عاطفة شخصية امتحنت بأحرج من هذا الامتحان العصيب !

وثبت له أبو بكر !

لا بيعة صحيحة يمكن أن تسمح له أمام ضميره

وأمام حبه لمحمد المثل والقدوة ومحمد القانون أن يقضي لبنت محمد بما يراه استثناء واضحا من قانون محمد!
ان قلبه ليتصدع حزنا وأسى . ولكنه مع هذا لا يملك ولا يستطيع هذا الاستثناء !
وبصدق كره الخلافة والبيعة بما عرضته لهذا الامتحان الرهيب والاختيار العصيب . فاما أغلى ما فى قلبه من عاطفة شخصية نحو محمد فى شخص بنت محمد. واما أغلى ما فى وجدانه منعاطفة مقدسة لمحمد !

ما بقيت فى عنقه خلافة محمد فلا سبيل له الى اجتناب هذا الكرب الشخصى المض ... فهو بها أشقى الناس . ألا ليتهم يقيلونه منها !
أما وهى باقية . أما وهى واجبه نحو مجد محمد وتراث محمد فلتكن المحنة الشخصية ما تكون ، فانما هو القانون سيد الجميع ولا استثناء لأحد !
افبعد هذه القارعة يمكن أن يتخاذل ابو بكر أمام هوى شخصى على حساب القانون الاعلى ؟
محال !
وفى هذا ما يلخص سياسته فى الدولة . وامامته . وأمانته . وتدبيره . وقضاءه ...
ومن هذا القبيل ما كان من شأنه مع الانصار .
يقول صاحب زهر الآداب :

« وصل الى ابى بكر مال من البحرين . فساوىَ فيه بين الناس . فغضبت الانصار . وقالوا له :
ــ فضلنا !
فقال أبو بكر :
ــ صدقتم ! ان أردتم أن أفضلكم صار ماعملتموه للدنيا . وان صبرتم كان ذلك لله عز وجل !
فقالوا :

ـ والله ما عملنا الا لله تعالى !

وانصرفوا . فرقى أبو بكر المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ـ يا معشر الانصار ! ان شئتم أن تقولوا انا آويناكم فى ظلالنا . وشاطرناكم فى أموالنا . ونصرناكم بأنفسنا، قلتم وان لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد . وان طال به الامد . فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى :

« أبوا أن يملونا . ولو أن أمنا
تلاقى الذى يلقون منا ، لملت
همو أسكنونا فى ظلال بيوتهم
ظلال بيوت ادفأت وأطلت »

فابو بكر مقر كل الاقرار بفضل الانصار . مستعد كل الاستعداد للتغنى بهذا الفضل آناء الليل واطراف النهار . وانه ـ وهو العربى العريق الكريم ـ ليعلم ان عرفان الجميل ومجازاة الاحسان من أوجب الواجبات . وان شبهة الضن على من غمروا المرء باحسانه سبة ووصمة . فناهيك اذن بالانصار الذين آووا النبى وآووه والمهاجرين حين اضطهدهم قومهم وعذبوهم وأهدروا دمهم . فشبهة الضن عليهم أقبح ما يكون بعد أن صارت مقاليد بلاد العرب كلها تحت يد الخليفة أبى بكر ...

حرج شديد جدا . وتعرض للمعابة كريه غاية الكراهة . ولم يكن يكلفه دفعه الا اليسير من المال فلا يراجعه ولا يعيب عليه أحد لما للأنصار من فضل ظاهر غامر . ولكن أبا بكر يحس نفسه مكتوف اليدين ، لأن القانون عنده هو القانون . وسيادته مطلقة . ولا استثناء منه لأحد بالغا ما بلغ الحرج !

وثبت لها أبو بكر . ولم تزحزحه المحنة . وظل

الحارس الامين على قانون محمد ، بثمن ما أفدحه من ثمن يؤديه من مشاعره الشخصية !

أترانا بحاجة بعد هـذا الى تقصى أحـداث حكمه وحكومته فى الداخل والخارج ؟

كلا !

فما بعد هـذين الموقفين زيادة لمستزيد . وقد بلغ الحرج الشخصي فيهما أقصى ما يبلغ من انسان . ولو غيره فى مكانه لوجد من فداحة الحرج عذيرا . اما هو فلم تكن له بذلك يدان . وان الموت لأحب اليـه من اغضاب بنت نبيه ، لو كان ارضاؤها فى الامكان ...

ولـكنه الحب الفذ الذى يتجاوز ذوات الاشخاص الى المبدأ ، فيراه محور الوجود الذى لاتقوم لشيء قائمة لولاه .

فلا عجب ان عاش ابو بكر خلافته زاهدا أشد الزهد. ولا عجب أن الخيلاء لم تركبه . وان فتنـة السلطان لم تلحقه . وانما السلطان عنـده عبء فادح تمنى لو أقالوه منه .

ولا عجب كان قدره عنـد نفسـه بمقدار التزامه « المبدأ » وحفاظه على سلطان القانون الاعلى . وقيامه بما لحب محمد المعنى ومحمد المثل من حق مطلق . ثم هو بعد هذا كله لا يرى حقا له عند أحد اللهم الا حق ذلك القانون الاعلى ، ولـكل أحد فى الوقت عينه عليه حق لا يعدله حق بما هو راع ، وبما هو مسئول عن رعيته .

رحم الله أبا بكر !

أما بعد ...

فأبو بكر فى مجموع صفــاته النفسية وسلوكه نمط على طرف النقيض من نمط رجــال كثيرين يحتفظ بهم تاريخ الامم على احتلاف لغاها واديانها .

فأبو بكر مثال الرجل الذى تعز به دولة العقيدة .
وأولئك أنماط الرجال الذين تنحل بهم سطوة العقيدة.
أبو بكر وهب حياته للمبدأ .
واولئك جعلوا من المبادىء متجرا ومرتزقا .
أبو بكر من معدن نادر شديد النقاء .
وأولئك من معدن شائع شيوع الرمال فى الصحراء .
فلئن قال قائل بعد هذا عن هذه الصفحات انها سيرة حياة من حيث هى صورة قلب ..

أو قال قائل انها دراسة فى الحب .
فالقولان ــ حين يتعلق الامر بأبى بكر ــ سيان .
لأن الحب الفذ كان لباب اللباب من ذلك الانسان..

... ...

... ...

وسلام على الصادقين ..

مصر الجديدة — دكتور نظمى لوقا

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

« ابو بكر : حواری محمد » هو حلقة فی سلسلة بداها الدكتور نظمی لوقا منذ سنوات وهی سلسلة تتصل بالتاريخ والفكر والانسان فی الاسلام . وكان اول كتاب فی هذه السلسلة هو « محمد : الرسالة والرسول » وقد لقی هذا الكتاب نجاحا واسعا بين جماهير المستنيرين من القراء العرب مسيحيين ومسلمين . وكتب الدكتور نظمی لوقا بعد ذلك عدة كتب اخرى منها « محمد فی حياته الخاصة » و « عمرو بن العاص » وقد تميزت كتب الدكتور نظمی بميزات واضحة اهمها عمق التفكير ، والاحاطة بالموضوع ، وحلاوة التعبير ، وترجع هذه الميزات كلها الى ان الدكتور نظمی لوقا ليس مجرد باحث يجمع الحقائق المجردة ولكنه كاتب فنان ومثقف واستاذ من اساتذة الفلسفة ، وهو فوق ذلك كله مسيحی عربی صاحب ضمير حی وصاحب نظرة خاصة الى التراث الاسلامی ، حيث يرى ان هذا التراث ليس ملكا للمسلمين وحدهم بل هو — بكل صفحاته فی الفكر والنضال والعقيدة — ملك للعرب جميعا . ومن هنا جاءت اسلاميات الدكتور نظمی لوقا من ارقی الدراسات واجملها واكثرها عمقا واقربها الى عقول القراء العرب وقلوبهم فی كل مكان . هذا الكتاب الجديد عن « ابی بكر » يحمل كل خصائص الدكتور نظمی فی دراساته السابقة واهم هذه الخصائص : عمق التفكير وجمال التعبير وشمول النظرة الى التاريخ والفكر والانسان والدين .